



جامعة المسيلة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

طور الماستر

ثنائية الشرق والغرب عند توفيق الحكيم عصفور من الشرق نموذجا

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تخصص: أدب عربي حديث

إشراف الأستاذ :
* نورالدين سيليني *

إعداد الطالبة:
* هجيرة لعماري *

السنة الجامعية: 2013-2014

شكر و عرفان

نستهمل قائمة شكرنا بصاحب الفضل والمنة، سخي العطاء المنعم الموفق مولانا جل شأنه
مس نور كتابه القلوب، لك الحمد ربنا، ولك الشكر علمتنا ما لم نعلم، وأنرت لنا درب
العلم والمعرفة وأعنتنا على أداء هذا العمل، نسألك اللهم النجاح والتوفيق لما فيه خير
وصلح وصلي رباه على الحبيب المصطفى سيد الخلق محمد صلوات الله والسلام عليه
إنه ليسعنا ويشرفنا أن نتقدم بحزيريل الشكر إلى كل من ساهم معنا في إنجاز هذا العمل .

ونخص بالذكر الأستاذ المشرف "سيليني نور الدين" الذي لم يبخل علينا بتوجيهاته ونصائحه
ولم يتوان في تقديم آرائه الصائبة لنا حتى تم إخراج هذا العمل إلى النور ليكون مرجعا ينتفع

به .

وتحياتنا إلى الأساتذة المناقشين وكل أفراد قسم اللغة والأدب العربي بجامعة المسيلة

والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه

مقدمات

حالات

الفصل الأول:

إطار العام لثنائية (الشرق / الغرب

أولا: الصدام الحضاري بين الشرق والغرب

ثانيا: ثنائية (الشرق/الغرب) في الرواية العربية

ثالثا: ثنائية (الشرق/الغرب) في فكر توفيق الحكيم

رابعا: ثنائية (الشرق/الغرب) في الفن الروائي عند توفيق الحكيم

الفصل الثاني:

أغرب فبغ عيونه توفيق الحكيم

من خلال "عصفور من الشرق"

أولا: قراءة في الرواية

ثانيا: موقف توفيق الحكيم من الغرب

قائمة المصادر

المراجع

الفهرس

"أيها الشرق! أين غربك؟"، تلك عبارة نادى بها أحد المفكرين متسائلا عن نظير الشرق، ألا لكل شرق غرب.

الشرق والغرب كلمتان متلازمتان كأبي ثنائي من هذا الوجود، نالتا حيّزا مهما من جغرافية العالم، لكن لا الصراع البدني ولا السياسي ولا الجغرافي يغني عن التعريف بها، إذ كان لها مفهوما مغايرا في الفكر العربي الحديث والمعاصر، حدده الصراع الحضاري، على غرار ما كانت تحمله من دلالات في زمن مضى.

فعلى إثر حملة نابليون بونابرت على مصر، بسط الغرب جناحيه على العالم الشرقي، فكان له أن رأى فيه جلّ موارده ومبتغياته العلمية والعملية، أما الشرق فلا سبيل له إلا الصمود والمواجهة، غير أن هذه الأخيرة لا تغدو إلا أن تكون على مستوى الفكر أيضا، هذا ما شكّل صراعا بين الطرفين تذوب فيه كل المعطيات لتشكل كلا حضاريا جديدا.

في خضم هذه الملامسات، برزت الرواية العربية الحديثة لتقمص دور المتبني لهذه الثنائية، ممثّلت الشرق والغرب كطرفي معادلة يستحيل وجود حل لها، إذ لا لقاء بين الشرق والغرب مهما تعددت صور ومفاهيم تلك العلاقة التي تجمعهما؛ الشرق بسموه الروحي، والغرب بماديته القاتلة.

وكان على رجل الانفتاح الحضاري "توفيق الحكيم" الإحاطة بثنائية (الشرق / الغرب) وتمثيلها في أولى الروايات لهذا المضمار "الصراع الحضاري"، المرسومة بالعنوان "عصفور من

الشرق"، مثلّ فيها الواجهة الثقافية للشرق وضمّتها خلاصة تجاربه في الغرب، باعتباره الواجهة التي حدّدها الشرق لترجيح الكفة الحضارية .

وقد كان من الأسباب الداعية لهذه الدراسة هو تآزم الصراع والسيطرة المستمرة للغرب على الشرق حتى اليوم، والتي شحذت همّة الحكيم للكتابة في هذا المجال .

كما نهدف من خلالها إلى الكشف عن هوية الآخر (الغرب) لدى الحكيم من خلال مجموعة مواقف تبين وجهته الحضارية .

انطلاقاً من المعطيات السابقة، تبادر لنا أن نعطي لهذه الدراسة مساراً محدداً يوضحه الإشكال أو التساؤل التالي: ما موقف توفيق الحكيم من الغرب؟ هل رفضه أم ذاب فيه؟ أم لعب دور المنصف والعاقل بينه وبين الشرق بوقفة وسطية بينهما؟.

وللإجابة على التساؤل المطروح، ارتأينا اتباع خطة تحوى من خلالها دراستنا على مقدمة وفصلين وخاتمة .

حيث كانت افتتاحيتها بالفصل الأول المعنون بالإطار العام لثنائية (الشرق /الغرب) ، بكل ما يحمله من مفهوم للثنائية التي تتضح من خلالها علاقة المتناقفة بين طرفيها "الشرق" و"الغرب" وبروزها في الرواية العربية الحديثة، ويكون الانتقال بعدها إلى تحديد مفهوم الثنائية من خلال فكر الحكيم وفنه الروائي .

أما الفصل الثاني فهو تطبيقي يحمل عنوان "الغرب في عيون توفيق الحكيم" من خلال "عصفور من الشرق"، الذي تتضح دلالاته بمفهوم الشرق الروحاني والغرب المادي، والذي جسده البناء الفني للرواية. ويتبين من خلاله موقف الحكيم من الغرب بطرح العديد من الأفكار.

ليكون المنهج المتبع في ذلك، المنهج الوصفي التحليلي بالإستناد إلى دراسات أخرى، فالموضوع المتناول يتطلب الوصف والتحليل، وهو ما اتبعناه خاصة في دراسة المواقف.

وقد ساعدنا على إثراء دراستنا العديد من المراجع بالإضافة إلى مصدر الرواية، فتمثل أهمها في "شرق و غرب رجولة وأنوثة" لجورج طرابيشي، "ثورة المعتزل" لغالي شكري و"تحت شمس الفكر" لتوفيق الحكيم.

والحديث عن الصعوبات ينحصر في أمرين، أولهما ضيق الوقت فالبحث العلمي يتطلب الدقة والتركيز. أما الأمر الثاني فيتمثل في تشابه المادة العلمية و تداخل الأفكار وصعوبة التحكم فيها.

لتكون آخر الكلمات شكر خالص وتقدير وامنتان للأستاذ الدكتور المشرف سيليني نور الدين، الذي طغى نوره على هذه الدراسة بعلمه وفكره وتواضعه وأدبه بما قدمه من نصائح وتوجيهات لاستمرار السير الحسن لهذه الدراسة .

أولا : الصدام الحضاري بين الشرق والغرب :

1- مفهوم ثنائية (الشرق /الغرب):

تعد ثنائية (الشرق /الغرب) من أكثر العبارات تداولاً في الخطاب العربي الحديث والمعاصر، إلى جانب العديد من الثنائيات التي تكاد تكون متكافئة الدلالة مثل : الأصالة/المعاصرة، نحن/الآخر، الداخل /الخارج... وكان لها أن تبنت مفاهيم عديدة منذ الزمن القديم، فقد "شاع على الألسنة مقابلة الشرق بالغرب، فيقولون مثلاً: الشرق شرق، والغرب غرب، وقديماً استخدموا هاتين الكلمتين متقابلتين، فالمؤرخون يقولون: تاريخ الشرق وتاريخ الغرب. والفلاسفة يقولون مثلاً: أنه قد اجتمع في الإسكندرية إلهام الشرق ومادية الغرب" (1). وهذا التباين في المفاهيم وضع الثنائية في حيز خاص، تبرز دلالاته حسب موقع استعماله سواء في التاريخ أو الجغرافيا أو تتعدى ذلك إلى أشياء أخرى "فلهذه الثنائية علاقة بالفضاء المكاني والزمني وتظهر الإشكالية في توضيح البعد الجغرافي للشرق والغرب، وربما كان التساؤل عن جغرافية وماهية الشرق أكبر إلحاحاً حتى يفتح السؤال على قيم حضارية ورؤيوية وثقافية خارج المحددات الزمنية والمكانية والإيديولوجية" (2).

فهل هناك حقيقة مدلولاً معيناً للشرق و مدلولاً معيناً للغرب؟

1- أ حمد أمين:الشرق والغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ط)1995، ص 7.
2- محمد صابر عبيد وسوسن البياتي: جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار اللانقيّة، ط1، 2008، ص 114.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

" الواقع أن الشرق والغرب من الكلمات العامة التي إذا أريد تحليلها عزت على التحديد...فهل كلمتا الشرق والغرب يمكن تجسيدهما بالرجوع إلى الجغرافيا، أو هما نوعان من المزاج والخصائص أكثر منهما جغرافيين؟" (1)

هذا الاختلاف والتضارب في الآراء حول تحديد وضبط أصل مفهوم هذه الثنائية فتح بابا ومجالا واسعا لتناولها ودراستها من عدة جوانب، خاصة الناحية الجغرافية وناحية الخصائص، هذا عند الباحثين المحدثين والمعاصرين، أما عند القدامى فلاشك أن تحديدهم لمفهومها كان من الناحية اللغوية .

1-1- مفهوم الثنائية عند اللغويين :

لقد ورد المفهوم اللغوي لمصطلحي (الشرق والغرب) في العديد من المعاجم اللغوية، وللوقوف عند معناهما وجب الرجوع إلى جذريهما اللغويين والأصل الإشتقائي لكل منهما .

فالشرق : لفظة مشتقة من كلمة "شَرَقَ" ،وقد ورد في معجم لسان العرب في مادة"شرق":

"شرقتِ الشمسُ تشرقُ شروقاََ وشرقاََ : طلعت، واسم الموضع المشرقُ ."(2)

وجاء في معجم مقاييس اللغة : "الشين والراء والقاف أصل واحد يدل على إضاءة وفتح، من

ذلك شرقتِ الشمس، إذا طلعت. وأشرقتُ إذا أضاءت .والشروق : طلوعها ... والمشرقان

:مشرقا الصيف والشتاء ،والشرقُ : المشرقُ ."(3)

من خلال هذين التعريفين، يحيلنا مدلول الشرق إلى الجهة التي تشرق منها الشمس وهي المشرق

1- أحمد أمين :الشرق والغرب، ص07.

2- ابن منظور: لسان العرب، ج6، تح : خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث، الجزائر، ط1، 2008، ص 83.

3- ابن فارس: مقاييس اللغة، ج3، تح:عبد السلام هارون، دار الفكر، الأردن، (د. ط)، (د. ت)، ص 204.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

والغرب : لفظة مشتقة من كلمة "عَرَبَ"، وورد في معجم لسان العرب:
" الغربُ و المغربُ : بمعنى واحد... وقوله تعالى: ((مَرْبُ الْمَشْرِقَيْنِ وَمَرْبُ الْمَغْرِبَيْنِ)) ، أحد المغربين:

أقصى ماتنتهي إليه الشمس في الصيف والآخر :أقصى ماتنتهي إليه في الشتاء".⁽¹⁾

وفي معجم مقاييس اللغة، يقال : "الغرب: عرق يسقي ولا ينقطع، والغربة البعد عن الوطن،

يقال غربت الدار.ومن هذا الباب :غروب الشمس، كأنه بعدها عن وجه الأرض".⁽²⁾

ومنه نستنتج أن "الغرب" لفظة يراد بها الجهة التي تغرب منها الشمس، وموضع الغروب

"المغرب".

حاول اللغويون القدامى ضبط مفهوم محدد لثنائية (الشرق /الغرب)، ومفهومهم لها انحصر

في جهة شروق الشمس وغروبها، لكن هذا المدلول غير كاف لوضع هذه الثنائية في إطارها

المناسب، وهذا مادفع بالباحثين المحدثين والمعاصرين إلى تحديدها من الناحية الجغرافية وناحية

الخصائص .

1-2 - مفهوم الثنائية من الناحية الجغرافية :

لقد أطلق الأوروبيون الكاثوليك تسمية الشرق على البلاد التي كانت خاضعة

للإمبراطورية البيزنطية، وهذا عند انقسام الإمبراطورية الرومانية. ثم أطلق الأوروبيون هذه

التسمية على بلاد الإسلام فيما بعد، وكان مدلول هذا المصطلح يضيق فلا يشمل إلا سورية

ومصر وبلاد الرافدين، وبعدها اتسع ليضيف إليهم الجزيرة العربية وفارس وتركيا، ثم امتد

¹ - ابن منظور: لسان العرب، ج10، تح: خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث، الجزائر، ط1، 2008، ص 28.
² - ابن فارس: مقاييس اللغة، ج4، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، الأردن، (د.ط)، (د.ت)، ص 421.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

بعدها هذا المصطلح ليشمل الهند والصين واليابان ومايليهما من بلدان آسيا. ونظرا لاتساع الرقعة الجغرافية للشرق وتنوع الحضارات والثقافات قسم هذا الشرق إلى مشارق هي: الشرق الأدنى، الشرق الأوسط والشرق الأقصى. وهذا بعد الإكتشافات الجغرافية، وقد سمي الشرق بهذا المصطلح السياسي الغربي لأغراض تعنيهم في حركتهم الاستعمارية لتجنب استخدام اسم الوطن العربي.⁽¹⁾

وثمة من الباحثين من "حدّوا الشرق بأنه ما كان شرقي البحر الأبيض المتوسط وامتداده شمالا وجنوبا، فيشمل ذلك الهند والصين، واليابان والإتحاد السوفياتي وإيران والعالم العربي بأجمعه بما فيه مصر، كما يشمل أستراليا"⁽²⁾.

هذا هو التحديد الجغرافي للشرق، أما الغرب فلاشك أنه الإسم المواجه للشرق. وبقدر اهتمام الغرب بالشرق، كان الغرب أيضا موضع اهتمام وغموض بالنسبة للشرق، وهو ما أثار العديد من النقاشات حيث :

يذهب محمد نور الدين آفاية إلى القول بأن هذه التسمية تحيل إلى الرومان والإفرنج أو إلى المسيحيين أو الأوروبيين أو الاستعماريين... أو إلى الغربيين فهي في كل مرة تكتسب مضمونا وتسمية مختلفين، وهذا حسب فترات التاريخ الجدلي لعلاقة الشرق بالغرب⁽³⁾.

¹ - ينظر ، محمد راتب الحلاق : نحن والآخر "دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر " ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، (د.ط)، 1997، ص10، 11.

² - أحمد أمين: الشرق والغرب، ص7، 8.

³ - ينظر ،محمد نور الدين آفاية : الغرب في المتخيل العربي ،منشورات دار الثقافة والإعلام، الشارقة، ط1 ، 1996، ص 12.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

أما محمد حسين فيرى أن الغرب" اصطلاح حديث، جرينا فيه على ما اصطلاح عليه الأوروبيون في عصور الاستعمار، من تقسيم العالم إلى "شرق" و"غرب"، يعنون بالغرب أنفسهم، ويعنون بالشرق أهل آسيا وإفريقية الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم"⁽¹⁾.

لكن هذا التحديد الجغرافي لكل من الشرق والغرب عليه اعتراضات كثيرة، أهمها "أن مافي أوروبا ما يعد شرقيا كجزء كبير من تركيا، وفي المشرق ما يعد غربيا كإفريقيا الجنوبية واستراليا"⁽²⁾.

بهذا يكون الشرق والغرب مصطلحات جغرافيان يتجاوزان المعنى الجغرافي للدلالة على أشياء أخرى غير جغرافية، ولعل هذا مادفع بالباحثين إلى تحديد مفهوم الثنائية من خلال الخصائص.

1-3- مفهومها من ناحية الخصائص :

ذهب بعض الباحثين إلى عدم الاتجاه إلى التحديد الجغرافي لمفهوم الثنائية، بل اتجهوا إلى التحديد بالخصائص "فالغرب يختص بالتقدم الميكانيكي والحركات الصناعية والديمقراطية وتلويين أدبه وفنه بلون خاص وتقدير النساء ومنحهن الكثير من الحرية"⁽³⁾.

وله طابع خاص به "هو النظر إلى الوجود الخارجي بعقل منطقي تحليلي يقف عند الظواهر مشاهدا لها وهي تطرد وتتابع على هذه الصور أو تلك، فيجعل من هذه الإجراءات في الحدوث قوانين يستخدمها في استغلال الظواهر على النحو الذي يرتضيه"⁽⁴⁾.

1- محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، (د.ط.)، (د.ت)، ص7.

2- أحمد أمين: الشرق والغرب، ص 8.

3- المرجع نفسه، ص8.

4- زكي نجيب محمود: الشرق الفتان، دار القلم، القاهرة، (د.ط.)، (د.ت)، ص 4.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

أما الشرق، فهو الموصوف "بالتواكل والخضوع للاستبداد والمساومة في المعاملة، والتقليل من حريات النساء، وكثرة الاعتقادات بالخرافات". (1)

وهي بلا شك نظرة جد مسيئة للشرق رغم مافيه من ايجابيات فقد يحتوي الشرق " قوة روحية معنوية قوية يجهل الغرب أبعادها ولذلك يخشاها ويحاول أن يقهرها عن طريق السيطرة العسكرية". (2)

فله طابع خاص هو النظر إلى الوجود الخارجي ببصره تنفذ من خلال الظواهر البادية للحس إلى حيث الجوهر الباطن بحدس مباشر، يمزج ذاته في ذاته، تفنى معه فردية الفرد وهو ما يجعل الشرق يدرك الحقيقة (العالم) بروحه لا بعقله. (3)

إذا، فلكل من الشرق والغرب نظرة مختلفة إلى الواقع ؛ نظرة المادة(العقل) للغرب، ونظرة الروح (الفن) للشرق، وهذا الاختلاف يضع الحد الفاصل بينهما.

لكن زكي نجيب محمود يرى عكس ذلك، فهذه التفرقة التي تجعل من الشرق فنانا يدرك الحقيقة بذوقه، ومن الغربي عالما يدرك الحقائق بالمشاهدة والتجربة والتعليل، لا تعني أنه لا يوجد علماء في الشرق أو ليس هناك رجال فن ودين في الغرب، و إنما تطلق هذه التسمية على ما هو شائع على الألسنة، من وصف الشرق بالروحانية، ووصف الغرب بالمادية. (4)

لقد عجز اللغويون القدامى على تحديد مفهوم معين وثابت لثنائية (الشرق /الغرب) وهذا ما دفع بالدارسين المحدثين والمعاصرين إلى البحث عن معناها الحقيقي من خلال إيجاد جوانب

¹ - أحمد أمين : الشرق والغرب، ص 8.

² -منى حسين مؤنس : مصر في عيون الغرب وأدبه، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، دار المعارف، (د.ط)، (د.ت)ص31.

³ - ينظر، زكي نجيب محمود: الشرق الفنان، ص 4، 5.

⁴ - ينظر، المرجع نفسه، ص4.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

جديدة تضع طرفيها محل الفارقة والاختلاف ليسهل تحديد مفهومها وإزالة اللبس والتعقيد عنها، فكانت الخصائص والميزات هي الفاصل بين عالمين ؛ عالم شرقي روحاني فنان متخلف صناعيا في طريقه إلى التقدم، وعالم غربي عقلاني في متقدم صناعيا يبحث عن الجديد .

فالغرب كائن أين تحل حضارته ويفرض سيطرته وتظهر نزعته، دون النظر إلى موقعه الجغرافي، فهو موجود في كل مكان حتى في الشرق، أما الشرق فهو لا يزال يبحث عن هويته وعن انتمائه بعد أن تفرقت به السبل وتضاربت فيه الأهواء وتعددت عنده الانتماءات .⁽¹⁾

2-مادية الغرب وروحانية الشرق:

لقد إعتاد الكتاب أن يصفوا الشرق بالروحانية والغرب بالمادية، لكن هذا المعنى طعن فيه من طرف بعض الكتاب الآخرين، إذ قالوا أن الغرب يفوق الشرق أيضا في الروحانيات كما يفوقه في الماديات، فنجد أن عواطفه أرقى، وإذا أردنا بالروحانيات الخرافات والأوهام كتحضير الجن والسحر، فالغرب خير منه في الشرق، وإن أريد بالروحانيات رقي العواطف وأعمال البر والإحسان، فذلك في الغرب خير منه في الشرق أيضا، وبهذا يكون الغرب أرقى في الماديات والروحانيات جميعا، لكن يظهر في هذه المسألة وجه آخر، وهو أن الناحية الروحانية غير الناحية العقلية، وغير الناحية العاطفية، ويتجلى ذلك في الشرق في أمور عدة⁽²⁾:

1- إنَّ الشرق منبع الديانات الكبرى، فاليهودية والنصرانية، والإسلام، وهي ثلاثة أديان كبرى في العالم، نبعث في الشرق وانتقلت إلى الغرب ولاتزال في الشرق أعظم منها في الغرب .

¹- ينظر ، محمد راتب الحلاق : نحن والآخر، ص40.
²- ينظر، أحمد أمين: الشرق والغرب، ص 136-141..

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

2- كان من أثر انتشار الأديان أن قيست أمور الحياة بمقياس غير مادي، فالعمل في الغرب يقاس بنفعه أو ضرره فقط، أما في الشرق فإنه أيضا يقاس بحليته وحرمة، برضى الله عنه أو عدم رضاه، ولهذا نجد المروءة والسماحة والنبيل والطاعة من أكبر الفضائل في الشرق، فيما يعد حفظ الميعاد والإقتصاد والصدق في المعاملة من أكبر الفضائل في الغرب .

3- الناس في الشرق عادة يقدرون في أعمالهم وغاياتهم فيها الحياة الآخرة، كما يقدرون الحياة الدنيا أما الغرب فالدنيا وحدها هي التي تدخل في حسابهم.

وكان من النتائج السيئة لهذه الروحانية المفرطة الكسل والعقود عن العمل والضعف وعدم الأخذ بأسباب القوة على الرغم من وجود روحانية صادقة تدعوا إلى العمل لا إلى الكسل.

صحيح أن الشرق يطغى عليه الجانب الروحاني، لكن ليس من المعقول أن تكون روحانيته هي الحاجز عن تقدمه أو أخذه بأسباب القوة ، بل الحاجز هو محاولة الاستعمار طمس تلك الروحانية وجعل الدين مصدرا للتخلف وليس لقوة.

3- علاقة الشرق بالغرب :

تعود نشأة العلاقة بين الشرق والغرب إلى أقدم عصور التاريخ، وهذا لطبيعة الموقع الجغرافي لكل منهما . فكان ولا بد أن يهتم أحدهما بالآخر، وينصب الإهتمام على الشرق أكثر فأكثر لسحره الروحي وعظمته الخالدة، وهذا ما جعله منطقة صراع عنيف و دائم ومسرحا للإنقلابات السياسية والفكرية والاجتماعية.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وهذا الصراع بين الشرق والغرب تمثل عبر مراحل متوالية حيث كان بداية "بين الفرس والروم، ثم في الصراع بين المسلمين والروم، ثم في الصراع بين المسلمين والصليبيين، ثم الصراع بين العثمانيين والأوروبيين مدا وجزرا، ثم كان آخر فصول هذه الملحمة الصلات بين الشرق متمثلا في آسيا وأفريقية، وبين الغرب متمثلا في أوروبا وأمريكا، وهي وصلات متنوعة، بعضها ثقافي وبعضها اقتصادي وبعضها سياسي".⁽¹⁾

فقبل الحروب الصليبية كانت نظرة أوروبا للشرق الإسلامي أنه وثني، يعبد "النبي" ويسجد للحجر الأسود، لكن لم يغير هذه النظرة إلا الإحتكاك أو الإتصال العنيف الذي جسده هذه الحروب القديمة فتحول بعدها هذا العنف إلى اتصال ثقافي فتح عيون الأوروبيين على حضارة شابة وفتية "وكان هذا الإنفتاح من أهم عوامل الإصلاح الديني في أوروبا، ومن أبرز مكونات عصر النهضة".⁽²⁾

وبهذا يكون الإتصال الثقافي من أهم العوامل المساهمة في توثيق العلاقة بين الشرق والغرب، والتي سنحاول إيضاحها أكثر من خلال مصطلحي "الاستشراق" و"الاستغراب".

3-1- الاستشراق :

يعتبر الاستشراق أحد ثمرات الاتصال الثقافي بين الشرق والغرب، و ما هو إلا رؤية تكونت في أوروبا اتجاه الشرق، أما الصوى الأساسية لتلك الرؤية فقد وضعت في القرن الثاني عشر، ثم توسعت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، لتمتد حتى القرن الثامن عشر،

¹ - محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية، ص 07.
² - ينظر ، رفاعة رافع الطهطاوي: الأعمال الكاملة، "السياسة والوطنية والتربية"، ج1، تح : محمد عمارة، دار الشروق، مصر، (د.ط)، 2010، ص121.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

الذي يعتبر قرنا مختلفا إلى حد ما وحتى العصر الاستعماري - هذه الرؤية تنطلق من عداء واسع للنبي - الذي أوقف بنبوءته الكاذبة، بزعمهم تطور الإنسانية باتجاه المسيحية" (1).

فقد انطلقت هذه الرؤية بلا شك من وازع ديني الذي كان من بين الأهداف الاستعمارية في الشرق، لتتطور هذه النظرة بعد ذلك فقد أصبح يراد بالاستشراق اليوم "دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأمه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكن في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم". (2)

وهناك من الباحثين من يرى بأنه "علم الشرق، أو علم «العالم الشرقي»، وكلمة «مستشرق Arabist» أو «Orientalists» وبالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق: لغاته، أو آدابه، أو حضارته وأديانه". (3)

والاستشراق بهذا المفهوم يشكل ثنائية الدارس (الغرب) والمدرّس (الشرق)، فهو نظرة تتمركز حول الذات، وتتنظر وتتعمق في إنتاج الآخر من علوم ومعتقدات وآداب ...

أما نشأة الاستشراق، فتعود إلى كونها نتيجة علاقة التقارب الخاص بين فرنسا وبريطانيا من ناحية، وبين الشرق من ناحية أخرى. وانحصر معنى الشرق الفعلي حتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر في الهند والأراضي المذكورة في الكتاب المقدس، ومن بداية القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية سيطرت فرنسا وبريطانيا على الشرق

1- محمد راتب الحلاق: نحن والآخر، ص15.

2- أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار النهضة مصر، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، ص512.

3- عادل الألوسي: التراث العربي والمستشرقون "دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طبعت في الغرب"، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1422 هـ - 2001 م، ص 13.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

والاستشراق، ومنذ انتهاء هذه الحرب كانت لأمریکا هي الأخرى السيطرة على الشرق واتبعت المنهج نفسه الذي اتبعته فرنسا وبريطانيا.⁽¹⁾

هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد كان لغزو نابليون بونابرت لمصر في عام 1798م دورا في رسم هذه العلاقة فقد كان يمثل " النموذج الصادق للإستيلاء العلمي الحقيقي على ثقافة ما من جانب ثقافة أخرى أقوى منها فيما يظهر، إذ أن احتلال نابليون لمصر آذن بدوران عجلة الروابط بين الشرق والغرب".⁽²⁾

وهو ما يؤكد أحد الباحثين "قمنذ الحملة النابليونية على مصر عام 1798 تزايد نفوذ أوروبا في الشرق وساعد على جلب الكثير من المخطوطات وكانت الجهات المعنية في أوروبا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات وكانت الجهات المعنية في أوروبا ترسل مبعوثها لاقتنائها من العالم العربي والشرق بطرق مشروعة وفي أكثر الأحيان بطرق غير مشروعة من خلال سرقتها في وضح النهار".⁽³⁾

وبهذا تكون حملة نابليون هي المؤشر الرئيسي الذي ينبئ بانطلاقة الحملة الاستشراقية في العصر الحديث، والتي تستهدف دورها الإحتلال الثقافي في الشرق، فجعلت من مصر ومن بعدها البلدان الإسلامية المجال أو المسرح الحي للمعرفة الغربية عن الشرق، أي أن مجال أبحاث المستشرقين كان واسعا يشمل جميع أنواع المعرفة دينية كانت أو سياسية أو اقتصادية أو علمية أو أدبية، وهذه الأخيرة كانت محل اهتمام المستشرقين، حيث "كان أهم مجال نشط فيه الاستشراق الأدبي هو تاريخ الأدب العربي الذي حاول المستشرقون

¹ - ينظر ، إدوارد سعيد: الاستشراق "المفاهيم الغربية في الشرق"، تر : محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، ص 512.

² - المرجع نفسه، ص 100.

³ - عادل الألوسي: التراث العربي والمستشرقون، ص 17.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

من خلاله التوقف عند الحقبات التاريخية المتتالية باحثين في خصائصها وفي خصائص العقلية العربية الإسلامية".⁽¹⁾

ولاشك أن ظهور شخصية "سلفستر دي ساسي"^(*) silvester de sacy في فرنسا بعد بداية حقيقية لظهور الدراسات العلمية المنظمة في مجال الاستشراق حول الأدب العربي والنزعة الموضوعية الحديثة مدينة لساسي بشخصيته التي أحببت العربية وتعمقت في دراستها، وبنزعه التي حررت الاستشراق من المرجعية الدينية التي انطلق منها.⁽²⁾

أما المستشرق الإنجليزي "ادوارد لين" فهو يمثل نفس مكانة "دي ساسي" في المدرسة الفرنسية، فقد أنفق ثلاثين عاما من عمره كي يؤلف قاموسا عربيا أسماه "مد القاموس" في ثمانية أجزاء، كما كتب عن "مصر وعادات المصريين" وقد اعتبر هذا الأخير "الكتاب" الوجه الآخر لكتاب رفاة الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" من حيث أن كلا منهما مرآة شرقية في يد غربي أو غربية في يد شرقي.⁽³⁾

وإلى جانب "دي ساسي" و"إدوارد لين" نجد الكثير من المستشرقين الذين كتبوا عن علوم الشرق الأدبية وحاولوا النهوض باللغة العربية، وإخراجها من عتمة الضعف إلى النور، كما اهتموا بالأدب الجاهلي، وترجموا دواوين الكثير من الشعراء، أمثال دوسلان، غويار، كارليل... هذا هو بعض فضلهم إلا أننا لا نستطيع أن ننكر ذلك العامل الاستعماري الذي كان أحد دوافع حركة الاستشراق .

¹ - فتحة سريدي: المستشرقون ودراسة الأدب العربي، مجلة التواصل الأدبي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار عنابة، العدد الأول، جوان 2007، ص244.

^{*} -سلفستر دوساسي (1758-1838) منشئ الجمعية الآسيوية الفرنسية والمجلة الآسيوية journal asiatique، طبع مقامات الحريري وترجم كليلة ودمنة وألفية ابن مالك والبردة، وله مؤلف في تاريخ العرب في الجاهلية، وآخر عن ديانة الدوروز.

² - ينظر، احمد درويش: الاستشراق الفرنسي والادب العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 2004، ص39.

³ - ينظر، المرجع نفسه، ص46.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

حيث يرى المستشرقون عموماً أن ما في التاريخ العربي والإسلامي من أمجاد ونقاط مضيئة لا يعود للإسلام أي فضل فيه ... والذي يقرأ ما كتبه المستشرقون لابد أن يلاحظ النرجسية والمركزية الأوروبية "الغربية" بغض النظر عن تاريخية الحضارة العربية ثم العربية الإسلامية.⁽¹⁾

وهو ما جعل المفكرين العرب والمسلمين ينظرون إلى الاستشراق بعين الريبة، ويجعلونه من أكثر مظاهر العدائية مع الغرب لما فيه من إساءة للإسلام والمسلمين.

والملاحظ أن معظم دراسات المستشرقين طغى عليها الجانب الذاتي، وخضعت لميولاتهم وأغراضهم السلبية وقد كانت بعيدة عن النزاهة العلمية والإخلاص، مما جعلها تضع الإسلام في دائرة، ومحل انتقاداتها وهجومها "وهؤلاء كان يهمهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه ويحرفوا حقائقه ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية، أن الإسلام...دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج لصوص سفاكوا دماء، يحثهم دينهم على الملمات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقى".⁽²⁾

من خلال هذه النظرة المسيئة للإسلام، ومن خلال الأعمال والخدمات التي قدمها المستشرقون للغة والأدب، ومع ذلك فالاستشراق في ذاته سيخضع لا محالة لنقد "ذاتي حقيقي بصفة مستمرة، يجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وقصورنا وتقصيرنا وأن نكون على وعي حقيقي بالمشكلات التي تواجهنا في هذا العالم المعاصر".⁽³⁾

¹ - ينظر ، محمد راتب الحلاق: نحن والآخر، ص23.

² - مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون "مالهم وما عليهم" دار الوراق، المكتب الإسلامي ، ط2، 1422هـ- 2001م، ص20.

³ - محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، ص131.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وكان من نتائج التجربة الاستشراقية أنها وضعت الكثير منا أمام خيارات متعددة، فالبعض وقف مبهوراً أمام التجليات الظاهرية "للحضارة الغربية المادية والنفسية... أما البعض الآخر فتتولد لديهم حالة نفسية تغذي الإنعزال والعزلة والبحث عن الأصول، وتكون مهمته هي حماية ذاته من الشرور التي يمثلها الغرب، أما البعض آخر فقد وقف موقفاً وسطاً بين أولئك وهؤلاء، يتيح له تأمل ونقد هذه المواقف، ومحاولة إيجاد خيار ثالث يجمع بين إيجابيات الأول والثاني.⁽¹⁾

رغم الآثار السلبية التي خلفها الإستشراق، والتي مست بدورها الثقافة العربية والعادات الإسلامية، إلا أنه لا يمكن إنكار ونفي وجود جوانب إيجابية لديه، والتي ساهمت بدورها في استثمار علوم الشرق وتوجيه الأنظار إليها، ووضعهم للمعاجم والفهارس، كما كان له الدور في تفتيح أذهان الشرقيين حول كيفية التمسك بثقافتهم والإحتذاء، بالطرق العلمية، والتنقيب للوصول إلى الجديد، والخروج من دائرة التخلف الحضاري، مما دفع بهم إلى البحث عن هوية الآخر (الغرب) ومحاولة الإستفادة من علومه، عن طريق الاستغراب .

3-2- الاستغراب :

تتبادل الحضارات الإنسانية دور التابع والمتبوع حسب دورات تاريخية، لكن التبعية والتقليد مهما أحكمت حلقاتهما لن تصلا إلى حد التماثل الحضاري أو التماهي المطلق مع الحضارة القوية و المسألة هنا تسلك منحى الجدلية حين يتعلق الأمر بقضية الشرق والغرب، والعلاقة التي تربطهما، فقد تجاوزت بدورها الأبعاد الإستعمارية إلى الصراع الفكري والحضاري .

¹- ينظر ، عادل الألويسي: التراث العربي والمستشرقون، ص19.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب)، ومحاولة هذا الآخر الغوص في ثناياه ومعارفه وخبائياه، فهل بالضرورة أن نجد موقفاً مماثلاً من الطرف الآخر (الشرق) للكشف عن هوية الغرب، ومحاولته الاستفادة من علومه، أو بالأحرى غزوه كما غزانا لإعادة الإعتبار وإثبات الذات؟

ومن ثم يمكننا فهم ثنائية (الشرق /الغرب)، فكيف تراها تتحدد؟

يرى أحد النقاد أنه لجدير "بالباحث أن يتساءل هل لدى الشرقيين علم شبيه به يدرسون فيه كل ما في الغرب من حضارة وآداب وفلسفة وأديان ونظم وفنون، لهم فيها منهجهم وفلسفتهم، وطريقتهم وهدفهم أو بالأحرى، هل لديهم علم الاستغراب كما أدى أولئك علم الاستشراق".⁽¹⁾ وهو بذلك يلفت الانتباه إلى إمكانية قيام علم يتبحر فيه أصحابه في آداب الغرب وحضارتهم، "وبناء على هذا يكون علم الاستغراب هو علم الغرب، ومن هنا يمكن كذلك تحديد كلمة «المستغرب» وهو الذي يتبحر من أهل الشرق في إحدى لغات الغرب وآدابها وحضارتها"⁽²⁾.

أما حسن حنفي فيعرفه: "بأنه الوجه الآخر والمقابل بل والنقيض من "الاستشراق"، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب) يهدف "علم الاستغراب" إذن إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر".⁽³⁾

¹ - أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، "رسالة دكتوراه" دار المعارف، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، ص 35.

² - المرجع نفسه، ص 37.

³ - حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، دار الفنية، القاهرة، (د. ط)، 1411هـ - 1991م، ص 29.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

من هذا التعريف يأخذ الاستغراب المعنى العكسي للإستشراق، فيتحول الدارس الى مدروس، وفيه تنعكس الوجهة الحضارية لتكون مهمة الاستغراب هي القضاء على مواطن الضعف والتخلف بالدرجة الأولى، ودحر عظمة الآخر (الغرب) لاستعادة مكانة (الشرق) بالدرجة الثانية. لكن السؤال المطروح، هل بالإمكان معادلة الآخر (الغرب)، وتعويض مركب النقص لدى (الشرق)؟ وفي نفس الوقت، هل لهذا العلم الشرقي أن يصل إلى درجة نضج العلم الغربي؟

وهو ما يوضحه أحد النقاد بالقول: "حقاً أن العرب اهتموا اهتماماً بالغاً في العصر الحديث بحضارة الغرب وآدابها، فأرسلوا البعثات إلى معاهده ومراكزه العلمية و قاموا بترجمة كثير من الكتب والدراسات والمؤلفات ونشرها ونقدها، ومع ذلك فإنه من الصعوبة بمكان أن يقطع أحد بوجود علم الاستغراب له كيانه ومنهجه ومدارسه وأهدافه وأصحابه وأتباعه"⁽¹⁾.

فعلم الاستشراق كان علماً قائماً بذاته له منهج وكيان على عكس علم الاستغراب الذي ليس له منهج وكيان، وهو ما يفتح باب التساؤل حول دور وأهمية تلك البعثات والرحلات إلى الغرب، التي ازدادت وتوسعت منذ فجر النهضة العربية الحديثة، والتي كان على رأسها رفاعة الطهطاوي.

حيث كان هدفهم من جراء هذه الرحلات وهذه الاكتشافات "تغيير الإنسان العربي من جراء تلقية هذه الحضارة الجديدة ورده على ما تلقى، ثم تغيير مظاهر الحياة والمجتمع"⁽²⁾.

¹ - أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص35.
² - نازك سبابا يارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، نوفل، بيروت لبنان، ط2، 1992، ص9.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وهذا ما يعني محاولة تغير ذهنية الإنسان العربي، وتحسيسه بوجود عالم جديد يجب أن يكتشفه، ويتفاعل معه، فتكون العلاقة بينهما علاقة تأثير وتأثر وبهذا تكون "الرحلة في جوهرها حركة وهذه الحركة - ذات هدف - وإلا كانت سفها - قد يتحقق وقد لا يتحقق - في الحالتين كليهما - اكتساب خبرات علمية وفكرية ناجمة عن المخالطة" (1).

كما كان لحملة نابليون بونابارت على مصر فضل كبير بما أدخلته من تقنية وسياسة وثقافة ومساندة لمحمد علي في الوصول إلى الحكم، وهذا ما صاحبه تغيير جديد، حيث قرر إصلاح المؤسسات المصرية، باستدعاء الفرق العلمية الأوروبية، وإرسال بعثات علمية وطلابية لتكوين نخبة محلية في مستوى متطلبات مؤسسة حديثة، هذان الحدثان، نجم عنهما ظهور نخبة من المثقفين المصريين (2).

وقد بدا تأثيرهم واضحا وجليا بالثقافة الغربية، حيث "كان احتكاك الطهطاوي بالحياة و الثقافة الفرنسية مدعاة لصدمة عنيفة أصابته عبّر عنها في كتابه الشهير بعد عودته إلى مصر "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" وسرعان ما أصبحت المعارف التي اكتسبها الطهطاوي وصحبه سلاحا في معركة التحديث الكبرى التي سعى إليها محمد علي باشا في مصر" (3).

و يعد هذا الكتاب "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" أهم وثيقة أدبية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والتي يمكن أن نؤسس بها ما يمكن أن نسميه بأدب الاستغراب .

1- حسن محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الاندلس، بيروت، ط 2، 1983، ص 25.

2- ينظر، محمد نور الدين آفاية: الغرب في المتخيل العربي، ص 37.

3- المرجع نفسه، ص 07.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

من خلال مضمون الكتاب، والمعارف الغربية التي اكتسبها الطهطاوي "كانت رحلة -بحق- عملية وصل بين الشرق والغرب، ولم يقتصر على مجرد للتعريف ببلاد الفرنسيين، بل حث شعوب الشرق على الأخذ بأسباب التقدم، وأخذ يقارن ويلتقط الفروق ويحللها وينادي للأخذ بأسباب النهضة الأوروبية، ولا يرى في ذلك أي شبهة تعارض مع ميراثه الفكري".⁽¹⁾

لقد غاص الطهطاوي في باريس حتى الجذور، فلم يترك زاوية أو ركنا لا وتعرف عليه، متسائلا عن عظمة هذه البلاد وعن سر تفوقها ومرتبها الحضارية رغم العيوب التي رآها فيها "فكان لقاء الشرق والغرب عند الطهطاوي لقاء وفاق، قدم من خلال رحلته العلوم والفنون والصناعات ولم يجد في ذلك أي تعارض مع هويته"⁽²⁾.

لعبت هذه الرحلة دورا كبيرا وفعالا في نقل الثقافة العربية عامة والبارسية خاصة إلى المجتمع الشرقي، على غرار الكثير من الرحلات التي تلتها، حيث كانت الرحلة عنصرا أساسيا في الربط بين الشرق والغرب، بإعطاء صورة عن الآخر للتعرف عليه، ومعرفة أسرار تقدمه ونهضته، وتوضيح الفروقات بين الأنا والآخر للأخذ بأسباب التقدم، وللحاق بالركب الحضاري. أسفر الصراع الحضاري الذي جسده ثنائية (الشرق /الغرب) عن ميلاد ثنائية جديدة هي (الاستشراق /الاستغراب)، والتي بدورها كانت وليدة الصراع الثقافي بين (الأنا/الآخر) حيث كانت العلاقة بينهما علاقة متاقفة تبادلا فيها دور (الدارس /المدرس)، وفي كلتا الحالتين

¹ - مصطفى نبيل: العرب وعلاقتهم بالغرب، مجلة العربي "الغرب بعيون عربية"، ج2، الكويت، العدد 60، 15 أبريل 2005، ص97.
² - المرجع نفسه، ص97.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

بقيت العلاقة نفسها، هي علاقة (التابع /المتبوع) التي تبرر وجود الصراع الدائم بين (الشرق /الغرب)، وهي علاقة غالب بمغلوب في معظم الأحيان .

ثانيا :ثنائية (الشرق / الغرب) في الرواية العربية الحديثة :

تبنت الرواية العربية الحديثة ثنائية (الشرق /الغرب)، بعد الاتصال الثقافي الذي جمع الشرق العربي بالحضارة الأوروبية (الغرب) فكان لهذا الأخير حضورا مكثفا فيها، تعددت أشكال اللقاء به وتباينت بين النفور والإعجاب والتماهي.

وقد كانت الرواية التي طرحت موضوع اللقاء بين الحضارة الأوروبية والشرق العربي امتدادا للرواية التعليمية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فهي أيضا تأخذ شكل الرحلة خارج المجتمع العربي، وبالذات إلى البلدان الأوروبية، لكنها تختلف عنها في أن الرحلة لم تعد رحلة سياسية كما في الرواية التعليمية، بل أخذت منحى آخر يتمثل في الدراسة والثقافة .(1)

ولعل ما يبين هذا الاختلاف هو أن "أبطالها جميعا وبلا استثناء هم من المثقفين الذين قدموا إلى حضرتي الغرب طلبا للعلم أو الأدب أو الفن، وكل رواية هي بمثابة تجربة ذاتية، حتى وإن لم ترو بضمير الأنا."(2)

أي أنها عبارة عن سير ذاتية قام رواتها بإسقاطها على شخصيات روائية "بل أن الرسوم التي تصور بعض المشاهد من «عصفور من الشرق» تمثل توفيق الحكيم شخصيا"(3)

¹ ينظر، شجاع مسلم العاني: الرواية العربية والحضارة الأوروبية، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، (د. ط) 1975، ص41.
² جورج طرابيشي: شرق وغرب، رجولة وأثوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت ، ط2 1997، ص12.
³ المرجع نفسه، ص12.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وللبطل المثقف أسباب لغربته "فإما أن يكون طالبا يممّ شطر الغرب للدراسة في جامعاته، وإما أن يكون مثقفا تجاوز مرحلة الدراسة، وذهب إلى الغرب، للسياحة أو هربا من القمع والإضطهاد في وطنه".⁽¹⁾

وربما يكون له سبب آخر، وهو "المرأة"، "ففي أغلب الروايات" يكون لقاء البطل الشرقي بالمرأة الأوروبية هو الوسيلة التي يكتشف البطل من خلالها أبعاد الحضارة الأوروبية"⁽²⁾.

وهذا التجنيس لعلاقة المثاقفة يصوره طرابيشي بأنه "الصراع الأزلي -الأبدي بين الشرق والغرب هو عينه الصراع الأزلي الأبدي بين الرجولة والأنوثة".⁽³⁾

وهو بذلك يسقط العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة على علاقة الشرق والغرب، فالشرق يمثل الرجل، والغرب يمثل المرأة، والعلاقة بينهما هي علاقة قوة وسيطرة من طرف الرجل، كما هو حال الاستعمار في علاقته بالشعوب المستعمرة، علاقة قوي بضعيف، يمارس عليها السلطة وهي ترضخ وتستسلم له، يقول طرابيشي: "علاقة المستكشف بالمجاهل والأراضي البكر، كعلاقة المستعمر بالمستعمر، هي - أو يفترض فيها أن تكون -علاقة رجل بامرأة؛ أي فتح وسيطرة من جانب ورضوخ واستسلام من جانب آخر"⁽⁴⁾.

تماما كما هو الحال في "رواية عصفور من الشرق" التي تعتبر أول رواية عربية رصدت تلك العلاقة .

¹ - محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية السورية -دراسة -منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د.ط)، 1999، ص26.

² - شجاع مسلم العاني: الرواية العربية والحضارة الأوروبية، ص41.

³ - جورج طرابيشي: شرق وغرب، ص28، 29.

⁴ - المرجع نفسه، ص 8، 9.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

حيث صدرت هذه الرواية في عام 1938 وهي " لا تنفرد بكونها أول رواية عربية تعالج موضوع العلاقات بين الشرق والغرب فحسب، وإنما ميزتها الأولى... أن الإطار المكاني للقاء الحضاري فيها باريس، بينما بطلها محسن، الطالب القادم للدراسة في السربون فيها، هو من مصر".⁽¹⁾

فقد نجح توفيق الحكيم "في تحويل الرواية إلى معرض لأفكاره المثالية عن التناقض القائم بين روحانية الشرق ومادية الغرب، مجردا الشخصيات التي تسعى في العمل من أغوارها النفسية وقسماتها الشكلية لكي تصبح ملائمة لإستراتيجيته التأليفية التي تعلن عن نفسها في خطاب محسن الذي يرى أنه لا لقاء بين الشرق الروحاني والغرب المادي".⁽²⁾

وعلى إثر هذه الرواية ظهرت روايات أخرى عديدة تناولت ثنائية (الشرق /الغرب) منها رواية "موسم الهجرة إلى الشمال " للطيب صالح ، "قنديل أم هاشم" ليحيى حقي، "الحي اللاتيني" لسهيل إدريس، "الساخن والبارد" لفتحي غانم وغيرها وكلها تناقش قضية الصراع مع الآخر الذي يكون الإنتقام منه عن طريق العلاقة الجسدية، والذي يسفر في النهاية إلى أنه لا لقاء بين الشرق والغرب .

1- "الحي اللاتيني" لسهيل إدريس:

إن الحي اللاتيني بكل ما يتلبسه من موحيات مسبقة، وبنقلته المبالغته إلى عاصمة النور والحب والغرب، يزجُّ بنا حالاً في مسرح نعلم أن الأحداث فيه تدور تحت لواء مبدأ اللذة،

¹ -جورج طرابيشي: شرق وغرب، ص18.

² -فخري صالح: قبل نجيب محفوظ وبعده "دراسات في الرواية العربية" دار العربية للعلوم ناشرون،بيروت، منشورات الإختلاف،الجزائر، ط1431، ص1-30.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

فما وطأت قدما الفتى باريس حتى راح يلوب كإبرة البوصلة التي تشرئبُ صوب الجهة عينها،
عن ذلك المصدر الكبير والأبدي للذة: المرأة".⁽¹⁾

يحكي الراوي في هذه الرواية سيرة أناه، في فترة سفره إلى باريس مدفوعاً بمشاعر
التحرر من ماضيه ومن رواسب التقاليد في مجتمعه، فكان أنا الباحث عن ذاته الضائعة يحاول
إيجادها من خلال علاقته بجنين الفرنسية⁽²⁾. وهو بذلك يثبت صفة تعطشه للجنس، وفي هذا
المجال يصرح جورج طرابيشي "أن شرقية "بطل الحي اللاتيني" فتنتمثل قبل كل شيء في
كبتة وحرمانه الجنسي".⁽³⁾

ولاسبيل إلى تحقيق ذلك إلا عن طريق السفر، فنجد بطل الحي اللاتيني " يغادر بيروت
إلى باريس بغرض الدراسة والتحصيل العلمي ظاهرياً، أما الدافع الحقيقي والأصيل للسفر فهو
البحث عن المرأة".⁽⁴⁾ يقول سهيل إدريس: "تبحث عنها... عن المرأة... تلك هي الحقيقة التي
تنساها بل تتجاهلها، لقد أتيت إلى باريس من أجلها".⁽⁵⁾

حيث خاض بطل الحي اللاتيني تجارب عديدة وفاشلة للوصول إلى المرأة، فهذه الرواية
ترصد لنا أكثر من نمط للفتاة الأوروبية، تعددت صورها من "ليليان" اللصة المحترفة سارقة
النقود، إلى "مارغريت" طالبة اللذة وبائعة الهوى، إلى "جانين مونتيرو" التي وقع في حبها عن
طريق علاقة كانت ثمرتها حملها الذي أنكره، ثم تراجع بعد ذلك وآثر الزواج بها لكنها
رفضت .

¹ - جورج طرابيشي: عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة ، بيروت لبنان، ط2، 1987، ص 303

² - ينظر، يمنى العيد: الرواية العربية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1 ، 2001، ص207.

³ - جورج طرابيشي: شرق وغرب، ص72.

⁴ - شجاع مسلم العاني: الرواية العربية والحضارة الأوروبية، ص61.

⁵ - سهيل إدريس: الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1935، ط14، 2006، ص23.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

هذا يعني أن الشرق العربي لو أراد الإرتباط بالغرب، فإن الطرف الآخر (الغرب)، سيرفض إلا في حالة واحدة، هي أن يتم سيطرته عليه تماماً، فالعلاقة يجب ألا تظل قوتها أو ضعفها في يد الشرق، وإنما يجب أن تكون دائماً في يد الغرب⁽¹⁾.

وهو ما يثبت عدم لقاء الشرق بالغرب، رغم تمثيل البطل دور المنتقم عن طريق الجسد، إلا أنه لازالت تحكمه أصوله الشرقية ذات المرجعية الدينية.

2- موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح":

عالج الطيب صالح في روايته "الموسم" علاقة الصراع بين (الأنثى) و(الآخر)، ولشدة ضراوة هذا الصراع، كانت الرواية تتضح بروح العنف والإنتقام، عكس فيها مسار الرحلة من الجنوب إلى الشمال لذلك كان فيها الشرق جنوب والغرب فيها شمال .

بطل هذه الرواية هو "مصطفى سعيد"، جاء إلى الغرب وتحت جلده عرق عربي عميق

لا يستطيع الخلاص منه قط، وقد سعى للخلاص من المناخ العربي لكنه لم يستطع ذلك، وهذا ما دفعه إلى أن يلعب دور الآخر الأرقى والأعلى، حاول أن يغزو الغرب كما غزانا الغرب من قبل، حاول أن يتصرف بعقدة لاشعورية لإستبطان الشعور بالدونية قصد التخلص منه، وقد كانت الوسيلة التي اختارها مصطفى سعيد هي النكاح⁽²⁾ .

فهو كغيره من الأبطال الشرقيين الذين يريدون إثبات ذواتهم عن طريق المرأة، وكانت "جين موريس" هي المرأة التي ظل يلاحقها ويطاردها، متعرضاً جراً ذلك إلى مختلف أنواع

¹ - ينظر، مصطفى عبد الغني: الإتجاه القومي في الرواية، عالم المعرفة، الكويت (د. ط)، 1994 ص 96.
² - ينظر، المرجع نفسه، ص 98.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

الذل والهوان بسبب التمييز العنصري، فهو ذو بشرة سوداء، ماجعل "جين" ترفضه وتصفه بالوحشية والهمجية والبشاعة بقولها: "أنت بشع. لم أر في حياتي وجها بشعا كوجهك".⁽¹⁾

إلا أنه ظل يطاردها، حتى عادت بعد ذلك السأم لتعرض عليه الزواج، وهذا الأخير الذي لم يكن سوى فعل انتقام، دنس معناه المقدس ليحمل مكانه كل دلائل الخيانة والمجون، يقول مصطفى سعيد: "حين نخرج معا، كانت تغازل غارسونات المطاعم وسواقي الباصات وعابري السبيل، وكنت أعلم أنها تخونني كان البيت كله يفوح برائحة الخيانة."⁽²⁾

فجين موريس مثلت الغرب أو الحضارة الغربية بكل صفاتها، بسذاجتها، بخيانتها، بمقتها للكيان العربي ورفضها للعرق الأسود الذي لا مكان له وسط الجنس الأبيض في نظرها، وهو ما ولد روح الإنتقام والثأر للكبرياء ومحاولة إثبات الذات لدى مصطفى سعيد حيث "تحولت" "الرجولة" منسوبة إلى الشرق إلى سلاح، وتحولت "الأنوثة" المنسوبة إلى الغرب إلى جرح وتحول فعل الحب إلى فعل انتقام."⁽³⁾

فرواية "موسم الهجرة إلى الشمال" تعكس تحدي الهوية السودانية لواقع مغاير دون أن تفهم قوانين الحركة في هذا الواقع الآخر، فالبحت عن الهوية اقترن بقصور في الوعي إزاء هذا الغرب، الذي وجب أن ننظر إليه من منظور الوعي والفهم، التأهل، العمل...⁽⁴⁾

فالشرق والغرب لاقاء بينهما مادام هناك صراع وتحدي وعدم قدرة كلا الطرفين على معرفة الآخر.

¹-الطيب الصالح: موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت، ط14، 1987، ص 34.

²- المرجع نفسه، ص164.

³- الطاهر لبيب: صورة الآخر العربي، ناظر ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص 799.

⁴- ينظر، مصطفى عبد الغني: الإتجاه القومي في الرواية، ص 100.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وتبقى الذات العربية الشرقية في ظل هذا الصراع تبحث عن أنها في ضوء فهم علاقتها بالآخر، لكن هذه العلاقة تبقى دائما لا تعرف أصول اللقاء بين النقيضين، فلا لقاء يربط الشرق بالغرب مهما تعددت صورته و مفاهيمه مجسدة بذلك الخلاف الفكري والنفسي والعاطفي بين هاذين العالمين كما تبقى صورة الانسان الشرقي دائما هي صورة المتعطر للجنس الذي تغرب من اجله سعيا من وراء ذلك إلى إثبات الذات، والتحرر من رواسب بيئته وتقاليدها.

ثالثا: ثنائية (الشرق /الغرب) في فكر توفيق الحكيم :

كان من ثمار الصراع الفكري والحضاري بين الشرق والغرب، أن ولد أفكارا ورؤى جديدة تنبأها الأدباء والمفكرون العرب، فكانت هذه الرؤى نتيجة تجارب خاضوا غمارها إثر ذلك الصراع فبرزت وجوه وأصوات أدبية وثقافية وروائية متعددة، تنوعت مشاربها وايدولوجياتها، رافقتها نقلة حضارية وتصورات حديثة نحو الكون والمجتمع العربي، خاصة الشرقي، رسختها في أذهانهم تطلعاتهم إلى الغرب، وغوصهم في ثناياه، وتنقلهم في رحابه، ومن أبرز هؤلاء :طه حسين، سلامة موسى، توفيق الحكيم

"توفيق الحكيم من أطيب الشخصيات التي عرفناها في الأدب العربي المعاصر، فهو الروح التي خلقت لتكون فنا وغذاء للأرواح... والقلم الذي خلق أدبا مميزا بين الآداب... والكلمة الصريحة الصافية التي يربعاها اليقين الانساني... توفيق الحكيم رجل الانفتاح الحضاري"⁽¹⁾.

¹ - حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي "الأدب الحديث" دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص 394.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وبما أن الحكيم فنان ومفكر ورجل انفتاح حضاري، فلا بد أن تكون له نظرة خاصة نحو العالم الذي يعيش فيه، خاصة وأنه تأرجح في حياته بين عالمين، عالمه الشرقي والعالم الغربي النقيض، وهذا ما أكسبه الغنى في الأفكار، فكان ولا بد لهذه الأفكار أن تتجسد في مواقف محددة تبرز تصورات الشخصية في مجالات الحياة والفكر الواسعة.

1- موقفه من الحضارة الغربية :

ترك الحكيم أرض مصر على إثر توصية لطفي السيد لوالده، بأن يعمل لترحيله إلى باريس حتى يحصل على الدكتوراه في القانون. وبموافقة الوالدين أقلع الحكيم إلى بلاد الغرب، وهو لا يحتضن بين ضلوعه سوى الفن والفكر. أما دراسة القانون فلم تكن سوى جواز السفر إلى الخارج".⁽¹⁾

ولا شك أن سفر الحكيم إلى الغرب سيكسبه نظرة مختلفة فقد "كان التناقض الأول والرئيسي بين الحكيم وباريس، هو التناقض البديهي بين الشرق والغرب، بين حضارة متخلفة مقهورة، وحضارة متقدمة قاهرة. نفس التناقض الذي عاناه من قبل طه حسين وسلامة موسى، ومن قبلهما الطهطاوي وعلي مبارك ..."⁽²⁾

حيث شاهد هناك كل معالم الحضارة والتقدم وتطور العلوم والمعارف، وهو ما جعل هذه الحضارة تحتل مكانة مرموقة لديه، يقول: "واليوم الحضارة القائمة هي حضارة الأوربية، ولعل الحضارة الأوربية أشد الحضارات نفوذا في الشعوب على اختلاف ألوانها، ولعل هذا يرجع

¹ - غالي شكري: ثورة المعتزل، دراسة في أدب توفيق الحكيم، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص33.
² - المرجع نفسه، ص34.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

إلى تسخيرها العلم والطبيعة في تسيير سبل المواصلات مما لم يعهده العالم من قبل، فالسفن البخارية والقطارات السريعة والطائرات والراديو والسينما - كلها وسائل من عجيبة وفعالة في سرعة إذاعة الأفكار الأوروبية ونشرها".⁽¹⁾

ولم يثبت على موقف الدهشة والإعجاب من الحضارة الغربية، بل تطور إلى عدة مواقف أخرى تراوحت بين الرفض تارة، والقبول تارة، والمماهة تارة أخرى، وانتهت به هذه المواقف كلها إلى موقف واحد، سلكه المفكرون والأدباء الذين سبقوه لهذه البلاد، والذين بدورهم عايشوا هذه الحضارة فكان لهم أن اتخذوا موقفا وسطا، بين أخذ أشياء من الحضارة الحديثة ورفض أشياء أخرى.

وبذلك توجه الحكيم إلى الحضارة الغربية "توجها انفتاحيا لا يحده في هذا التوجه إلا أمر واحد هو أن لا تفقدنا تلك الحضارة ضميرنا الشرقي، فالحضارة التراث هي من صنعنا وصنع الغرب، وصنع الأمم المختلفة وهي لنا وللغرب، ولكن ميزتنا الخاصة في التوجه الحضاري هو الروحانية الشرقية".⁽²⁾

الحضارة الغربية في نظر الحكيم تخص الجميع، لنا أن نخترف منها ما نريد، لكن في حدود ما تفرضه علينا شخصيتنا الشرقية، وفي هذا الموقف يثبت الحكيم أصالته ونزعتة الشرقية وفي نفس الوقت لا ينفى عن الحضارة الغربية بعض الإيجابيات المهمة، فكان موقفه وسطي بين (الشرق) و(الغرب) .

¹ - توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، دار مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة (د. ط)، (د. ت)، ص 94.
² - حنا الفاخوري : الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص 398.

2-موقفه من الحضارة المصرية(الشرق) :

يقال: إن الأديب ابن بيئته ومجتمعه، والحكيم ابن المجتمع المصري، لذلك ارتبطت أفكاره بأصوله المصرية العريقة .

يقول توفيق الحكيم: "إن عاطفة الإستقرار والإيمان عند المصريين ممزوجة بالدم، لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق، واختلاف العلماء في أمر أصلهم لم ينته بعد، وفي كل يوم يبدو دليل على أن العمران والإستقرار وجدا في مصر قبل التاريخ المعروف ولقد ظهرت الحضارة المصرية في التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة".⁽¹⁾

وهو بذلك يشيد بأصالة وعراقة الحضارة المصرية والتراث المصري وهو يحاول "أن يبعثه على أنه من أهم ينابيع الروح والفكر والحضارة الشرقية والعالمية، ويمعن في إحياء مصر الفرعونية ويمعن في الربط ما بين الحياة في الريف المصري والحياة الشعبية في العهد الفرعوني ما بين الذهنية المصرية في هذا العهد والذهنية التي عرفت في العهد الفرعوني".⁽²⁾

فالحضارة المصرية عنده هي حضارة كاملة، أم الحضارات جميعا، أم الحضارة الغربية أيضا أمدتها بكل أنواع الفكر والعلوم والفنون ومثل هذه الحضارات عند الحكيم لا تتدثر فهي خالدة في نظره، ويحاول الربط بين الماضي والحاضر لتستمر، وكل ذلك لشدة إيمانه بمصر، فهذا الإيمان "هو عصب الأدب و الفن الذي يكتبه، عصبه الرئيسي، إنه يرى في مصر أرضا

¹- إلى الدكتور طه حسين من الأستاذ توفيق الحكيم: مجلة الرسالة، القاهرة، العدد العاشر، 1 يونيو، 1933، ص6.
²- ينظر، حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص399.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وناسا وتراثا، قلبه النابض بالحياة.....فهي تستحق أن يعيش من أجلها الإنسان، وأن يضحي في سبيلها بكل ما يملك".⁽¹⁾

فمصر عنده أمة روحية احتلت عقله وقلبه فهي "أمة مستقرة مؤمنة، زهدا عمرها الطويل، وخيرها الكثير في مبادئ الحياة، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن المصري"⁽²⁾، أي أن الجانب الروحي هو الذي أبقى على حياة هذه الحضارة.

من خلال هذه النظرة فإن الحكيم "لا يتردد في وضع الحضارة المصرية في مكانها التاريخي فلا سبيل إلى فهم حضارتنا والوعي بذاتنا الحضارية، إلا بمقارنتها إلى بقية الحضارات المحيطة، ومختلف العصور الحضارية: إن الثقافات و الحضارات عند الحكيم لا تموت ولكنها تهضم في ثقافات وحضارات أخرى".⁽³⁾

فكل حضارة نشأت ماهي إلا امتداد للحضارة التي سبقتها، وما الحضارة (الغربية) الحديثة إلا امتدادا للحضارة المصرية (الشرقية)، لذلك سعى الحكيم إلى إعطاء الحضارة المصرية مكانتها التاريخية وقيمتها الحضارية، وحاول أن يجد لمصر حضورا في كل مكان، في العقل، في القلب، في الحياة، في الروح، حتى في الفكر والفن؛ ففنه مستمد من روحانيتها، وحياته مستمدة من نبض قلبها، يريد أن يثبتها ذات حضارية خالدة لا تتدثر، تشكل بذلك مع كل الحضارات وحدة متماسكة لتشكل مع بعضها بعض حضارة إنسانية شاملة .

3-موقفه من الدين :

¹ - غالي شكري: ثورة المعتزل، ص5.
² - توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، ص47.
³ - غالي شكري: ثورة المعتزل، ص67، 68.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

ينتمي الحكيم في نسبه وأصوله ينتمي إلى مزيج معقد من الدم المصري والتركي، ولاشك أن وجود الغرب المسيحي في قلب العالم العربي والإسلامي وظهور الحركة الكمالية في تركيا وانحطاط الخلافة الإسلامية مكن إلى حد كبير من ظهور الاتجاه العلماني، الذي كان والد الحكيم ينتمي إليه، وفي هذا الخضم المتلاطم وجد توفيق الحكيم، ولاشك أن البيت الذي ينتمي إليه كان يشهد التأثير بهذا التيار. (1)

يضع توفيق الحكيم للدين مكانة خاصة تجعله يميز البشر عن باقي المخلوقات، وهو معتز بكل من يحمل شعار الدين يقول: "أحيي كل من يعينه جوهر الدين، وأحث الناس على أن يفخروا بالدين، فإني دائماً أؤمن أن الدين هو الذي رفع الإنسان فوق مرتبة الكائنات جميعاً". (2)

وبما أن الإنسان ابن مجتمعه، فلاشك أن الدين ستكون له علاقة بنظامه الحياتي والاجتماعي حتى بفكره وبجوهره كإنسان وهنا يطرح التساؤل "أهو شيء مفيد للبشر في أمر حياتهم ومعاشهم؟... أم هو طريق لحل اللغز الأكبر، وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم؟.. لواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين، فالدين باعتباره قانوناً اجتماعياً ينظم الغرائز، ويحفظ التوازن بين الخير والشر -أمر يتعلق بذات الإنسان... متصل إذن بعقله وعلمه". (3)

¹ - ينظر، محمد مصطفى هداة: دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العلوم العربية، بيروت لبنان، ط1، 1410 هـ -1990م ص 288، 289.

² - توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، ص41.

³ - المرجع نفسه، ص15، 16.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وتبدو مثالية الحكم في الدفاع عن الإسلام، وعن الدين بشكل عام مستمدة من جوهر عميق هو مصر القديمة. وهو ما نلمحه في قوله: "مصر هي الروح، هي السكون، هي الاستقرار".⁽¹⁾

من الواضح أن هذا الدفاع لا يكون إلا نتيجة تأثره بالدين الإسلامي حيث: "تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان، فهو دين بسيط فطري، لم تدخله صناعة، كل شيء فيه صادق خالص صاف، ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة".⁽²⁾

يرى الحكيم الدين بصفة عامة ضرورة للبشر، يسير شؤونهم وينظم حياتهم، فلا حياة للإنسان بدون دين، وهو في نفس الوقت يفصل الدين عن العلم، يقول: "إن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء".⁽³⁾ ينظر الحكيم نظرة خاطئة للعلم، فهو يرى فيه مصدر هدم للدين، فإذا كان كذلك فبماذا نفسر ازدهار الحضارة الإسلامية قديماً؟ أليس بالدين والعلم معاً؟.

لكنه في موضع آخر يرى عكس ذلك فهو متناقض ينفي رأيه الأول من خلال تأمله لشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤكد ذلك من خلال قوله: "إنني كلما تأملت شخصية «محمد» مجردة، ثبت إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود، وأن الدين الحق لا يتعارض والعلم والحق!.. بل إن الدين والعلم شيء واحد، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه".⁽⁴⁾

¹ - إلى الدكتور طه حسين من الأستاذ توفيق الحكيم: مجلة الرسالة، ص7.

² - توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، ص29.

³ - المرجع نفسه، ص15.

⁴ - المرجع نفسه، ص25، 26.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

من خلال شخصية النبي - محمد صلى الله عليه وسلم-، أيقن الحكيم أن الدين والعلم غير متعارضان فالعلم أيضا يدعو للإيمان بالله تعالى.

الحكيم يؤمن بالله ونبيه، لكنه في "عصفور من الشرق" يهدي كتابه إلى حاميته الطاهرة السيدة زينب، التي يلج إليها في معظم أوقاته "... كان يحس الفتى هنالك أنه أقرب إلى روح السيدة الطاهرة...." (1).

وهو ما يؤكد شدة تعلقه بها. فإيمانه بالسيدة لا يدل على رسوخ الدين في ذهنه ونفسه، وهذا التصرف خارج عن تعاليم الدين الإسلامي فهو يتوسل إليها ويترجاها وهذا ما يرفضه الإسلام ويأباه. وفي كتابه "زهرة العمر"، يتحدث الحكيم عن علاقته بالنساء والحب، يتحدث عن "أبنا" و"ساشا"، يتحدث عن الشرب. (2).

لا شك أن الحكيم في هذه المواقف الخارجة عن الدين الإسلامي متأثر بنسبه وآل بيته، ومتأثر أيضا بالثقافة الغربية والغرب وبحياتهم التي تتميز بالحرية الزائدة والمفرطة، التي تجعل من الدين مجرد مادة. وربما تكون مجرد مواقف عابرة لا غير، فالدين في ذات الحكيم كان دائما ذلك الجوهر الذي يعيش به الإنسان في الحياة ويميز الذات (الشرقية) عن الذات (الغربية) بالتمسك بهذا الكنز وإعطائه قداسته كما يجب.

¹ - توفيق الحكيم: عصفور من الشرق، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر، الفجالة (د. ط)، (د. ت)، ص157.
² - ينظر، توفيق الحكيم: زهرة العمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، (د. ط)، 1997، ص150.

4-موقفه من المرأة :

للمرأة قيمة كبيرة لدى توفيق الحكيم، حيث عالج جميع النواحي التي تربطها بالحياة، بالفن، بالحرية بالتعلم... بكل ما يعطيها حقها ومكانتها في المجتمع .

"المرأة عنده جنة الدنيا وإشراق الحياة، ولكن إشراقها هذه لا تكون إلا بالرجل الذي خلقت المرأة لتكون مكملة له، ولكي تدور في فلكه، لا على سبيل الرق والعبودية، ولا على سبيل التواصل المتكافئ".⁽¹⁾

وقد شاع على الحكيم أنه عدو للمرأة، ويقف دائما ضدها لكنه ينكر ذلك ويبين أهمية المرأة لديه، بقوله: "ما يشاع حول المرأة فهو من قبيل الباطل، فأنا لست ضد المرأة، والمرأة هي كل شيء في حياتنا لأنها نصف المجتمع، ولأنها مدرسة لو أحسنا إعدادها. المرأة تخرج عنها أجيال ومجتمعات مفيدة وصالحة".⁽²⁾ فقسوته أحيانا عليها لم تكن كرها واحتقار لها بل كانت مجرد غيرة عليها، وهذا لأهميتها لديه.

للمرأة رسالة اجتماعية وحضارية، فدورها مهم خاصة في بيتها و هذه الرسالة لا تكون ناجحة إلا بثقافة المرأة وعملها، يقول الحكيم: "إن المرأة للبيت، ولكنها لكي تكون بحق ملكة للبيت وقرة عينه، يجب أن تتقف أكمل ثقافة!... إن من النساء في صدر الإسلام من ففن الرجال في فنون الشعر والأدب والعلم والجدل".⁽³⁾

¹ -حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، ص401.
² - رشيد الزواوي: أحاديث في الأدب مع توفيق الحكيم وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، 1986، ص21.
³ - توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، ص161.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

فالثقافة هي التي تحرر المرأة من الجهل و العبودية وتجعل منها مصدرا للفن ،والمرأة المسلمة الشرقية بهذا الفن تشبه كثيرا المرأة الغربية التي يضرب بها المثل في أن "أجمل" الفن الرومانتيكي "الفرنسي إنما نبع تحت أقدام «مدام ريكاميه» ،وإن صالونات السيدات في أوروبا ،ومجالس الشعر والغناء في الشرق عند العرب ، هي التي أخرجت أجمل ما في الغرب والشرق من شعر وآداب وفنون" (1)

فالمرأة سواء في الغرب أو في الشرق هي روح الفن و مصدره أو أنها هي الفن في حد ذاته وهو بذلك معتز بشرقيته ومعتز بالمرأة الشرقية المسلمة: " كل ما أرجوه كشرقي مسلم إن تكون المرأة الشرقية تتسم بالاعتدال فلاهي متحررة بالمرء ولاهي بمتخلفة غارقة في الجهل". (2) حتى حريتها يجب ان تكون محددة كما فرضها لها الدين الذي يرفع شعار الأخلاق والادب ،على عكس المرأة الغربية التي تتمتع بالحرية الزائدة دون أن تتقيد بضوابط محددة ،وهو ما شاهده من خلال معايشة (الغرب) ونظرته المادية للمرأة التي تتسلخ عن القيم وأخلاق الموجودة في (الشرق).

جعل الحكيم للمرأة مكانة وقداسة فاقت قداسة ومكانة الفن لديه ،حيث نالت قضيتها حيزا واسعا في فكره ،فلا يخطو خطوة حاضرة أمامه بموقعها الاجتماعي الراقى وحلتها الحضارية المزينة بالأخلاق .

¹- عبد العاطي شلبي: فن النثر الحديث، تحليل مقالات وقصص قصيرة، ج1، المكتب الجامعي الحديث، الأزراطية الاسكندرية (د، ط)، 2004، ص99.
²- رشيد النوارى: أحاديث في الادب مع توفيق الحكيم وآخرين، ص21.

5- موقفه من الفن :

كان الفن دائماً العنصر الجوهرى فى حياة الحكيم بأسرها، فلا يعرف أحد فى حياته عاطفة جامعة أو عملاً سياسياً خارج نطاق الفن، و الرجل المتمثل فى شخصيته اعتاد النظر إلى الأحداث المختلفة، وإلى الأشخاص الأعزاء لديه، وإلى المواقف الخاصة والمواقف القومية من خلال فنه.

والفنان عنده " هو الذى يكشف عن الطبيعة من خلال نفسه، والعالم وهو الذى كشف عن الطبيعة من خلال المجهر، وكلاهما يكمل الآخر فى بناء المعارف الإنسانية".⁽¹⁾
وبهذا يعطى حرية للفنان فى إبداء آرائه اتجاه الأشياء فى الطبيعة، وفى نفس الوقت يعمل العالم على تحديد وإعطاء مقاييس محددة لذلك العمل الفنى وتقييمه بالجودة أو الرداءة، وبذلك يكون الفنان والعالم وجهين لعملة واحدة.

وفى نفس الوقت "يتم اكتشاف الذات الفنية المبدعة من خلال ما يتركه لنا الفنان من جملة آثاره التى نتعرف فيها على شخصيته الكاملة من أسلوبه فى التفكير والتعبير وطريقته فى تناول الأشياء".⁽²⁾

كما هو الحال مثلاً فى الأعمال الأدبية القديمة سواء شعرية كالشعر الجاهلى أو نثرية كالقصص والنوادر فأصحابها غير موجودين، إلا أن المتصفح أو القارئ لها يلامس ويقرأ شخصية كاتبها من خلال محتواه كشعر أبى نواس مثلاً وأعمال الجاحظ....

¹ - توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، ص79.

² - غالى شكرى: ثورة المعتزل، درلسة فى أدب توفيق الحكيم، ص44، 45

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

الفن لا يتعارض مع الحياة عند الحكيم بل على العكس، فقد أتاح له الفرص المناسبة لإبراز فنيته وموهبته، كما أتاح له أيضا أن يوقع النغم المناسب المليء بالأصداء والرنين، وأعطاه الحرية في اختيار المعاني التي يريد. ومن الملاحظ أن الفن هو الروح التي تسري في جسد الحكيم والدم الذي يجري في شرايينه، به اكتسب لقب الفنان لأن شخصه اصطبغ به، فلا يرى شيئا إلاَّ بعين الفن، وتركيزه على الفن والفنان والعمل الفني " كان عملا رائدا في تاريخنا الأدبي الحديث، لأن الأديب في مصر لم يكن فنانا بمعنى الخلق والإبداع الذي يمزج أساليب الحضارة الأوروبية بالتجربة المصرية المحلية لينتج "فنا" يتميز بالأصالة والصدق والجدة والتفرد".⁽¹⁾

6-موقف من الديمقراطية :

آمن الحكيم بالديمقراطية إيمانا عميقا، بأوسع ما تحمله هذه الكلمة من معاني سامية كالحرية التي لا يمكن لها أن تتجزأ، وإلا كانت شكلا بلا مضمون، أو قناعا زاهيا جميلا لوجه دميم مشوه، أو لعبة سياسية للتخدير الاجتماعي، فقد آمن بالحرية إيمانا عميقا واعتنق مذهبها. له نظرة خاصة اتجاه الديمقراطية، ويرى بأنها "روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع!.. وإن كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هي طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية".⁽²⁾

¹- المرجع السابق، ص75.
²- توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، ص129.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

ورغم تعدد المعاني التي تحملها الديمقراطية، إلا أن الحكيم لم يعرفها بالمعنى السياسي، بل تبني مفهومها باعتبارها "مبدأ إنسانيا"، الديمقراطية الموجودة في قلب كل إنسان يقدر معنى "حقوق الإنسان" ومعنى "الحرية" والكرامة الآدمية".⁽¹⁾

الديمقراطية عند الحكيم هي حرية الرأي وحرية الفكر وحرية العقول التي لا تكون خاضعة لأي سلطة، فالإنسان المسلوب الحرية يكون شأنه شأن الحيوان الذي لا يملك حق التصرف في نفسه لأنه بدون عقل، وهو ما يظهر جليا في خطاب الحكيم: "إذا أردتم الحرية والكرامة فافحصوا كل رأي بعقولكم ولا تقبلوا جزافا وبغير تفكير آراء غيركم، حتى ولو كان أصدق أصدقائكم!.. إن الكلب على مروءته محتقر.. لا شيء إلا لأنه قبل بلا صعوبة أن يضع أصدقائه في عنقه قيذا وإن كان من ذهب".⁽²⁾

وهو بذلك يرفض الإنقياد والتبعية بكل أشكالها و مصدرها، محبذا صفاء العقول وسلامة التفكير في الأمور، فلا تغرينا الأهواء و الميولات والرغبات، بل نرفع شعار الكرامة الآدمية، وبما أن الديمقراطية عنده تشمل كل معاني الإنسانية وحرية الإنسان أينما وجدت، فلا شك أن هذه النظرة ستكون واحدة لديه في (الشرق) أو في (الغرب) على حد سواء، المهم أنها تخص حرية الفكر والعقل .

¹ - ينظر، غالي شكري: ثورة المعتزل، ص96.
² - توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، ص100.

7- موقفه من الحرية والاستعمار :

توفيق الحكيم رجل الفكر الحر والحرية الفكرية، فتح عينيه على الحرية وذاق طعمها، ولمس أثرها في التطور الأوروبي وعرف فضلها على انتفاضة الشعوب الراقية، فهي أساس الحياة ورفيقة العقل البشري الذي لا ينمو إلا في رحابها.

آمن الحكيم بها كإيمانه بالفكرة المصرية، وبالفن، فالحرية المطلقة "لديه.... هي فكرة مثالية تدور في نفس الفلك الميتافيزيقي الذي تدور فيه الفكرة المصرية من ناحية، والفكرة الفنية من الناحية الأخرى".⁽¹⁾

عاش الحكيم في جو مشحون بالانفعالات الوطنية والاستعمار، لكن لم يرد بالحرية حرية الشعوب من الاستعمار فقط، بل أن الواقع الذي نعيشه والحضارة التي نسايرها تعرض علينا وجود الحياة في كل شيء، لذلك أرادها أيضا " حرية فكر، وحرية معتقد، وحرية كلام، وحرية عمل وتصرف ولباس".⁽²⁾ كما هو الحال لدى (الغرب) الذي بدت فيه ملامح الحرية في كل مناحي الحياة، وفي كل مظاهر العمران والاقتصاد....على عكس (الشرق) الذي تغدو حريته نسبية، فهو دائما يشعر بالقهر الاستعماري.

أما موقفه من الاستعمار بشكل عام فيتحدد في أن سيطرة الغرب على الشرق اليوم، لا تكفي بالإخضاع المادي والاقتصادي فقط، بل أنها تشمل الإخضاع الروحي، فأمرिका اليوم لا تقف

¹ - غالي شكري: ثورة المعتزل، ص74، 75.

² - حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص399.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

عند الاحتلال العسكري فقط وإنما تريد أن تعرض على الشعوب تفكيرها الاجتماعي ونظمها المستبدة.⁽¹⁾

وبهذا تكون نظرة الحكيم إلى الاستعمار (الغرب) نظرة سلبية، فالغزو الضي يقوم به على الشعوب (الشرق) على مستوى الفكر والمعتقدات والثقافة، يكون أشد وطأة من الغزو المادي والعسكري، وكل غزو مادي لا بد أن يكون وراءه غزو ثقافي والأمم إذا تلاشت مقوماتها الثقافية والفكرية تلاشت واندثرت هي الأخرى، فمن يحتل الأرض، يحتل الفكر.

وخلاصة القول في الأخير، أن ثنائية (الشرق/الغرب) نالت حيزاً مهماً في فكر توفيق الحكيم، إذ اتضحت معالمها من خلال العديد من المواقف التي عالجها جراء تجربته الهجينة التي امتزجت أحداثها بين الشرق والغرب، فكان لهذه الثنائية أن اتخذت مفهوم الخصائص عنده، خارج المحددات الجغرافية، هذه الأخيرة التي لم تشكل أي عائق أمام الحكيم، ولم يتسن له حتى التفكير فيها أو الإشارة إليها، فهمه الوحيد هو الفكر والانفتاح الحضاري في حد ذاته لا الرسوم الجغرافية التي احتضنته، وبذلك يرجع الدور الأول والأخير للخصائص في تحديد مفهوم الثنائية عند الحكيم.

رابعاً: ثنائية (الشرق/الغرب) في الفن الروائي عند توفيق الحكيم :

يحتل "توفيق الحكيم" مركزاً رئيسياً في النهضة الأدبية الحديثة في مصر، منذ بداية القرن الحالي، وهو لم يكتب سوى عدد قليل من الروايات، بسبب انشغاله الأساسي بالمرسح، ولم يبدأ مرحلة التأليف الجدّي إلا بعد سنة 1920، وكانت بعض هذه الروايات التي أنجزها في نهاية

¹ - ينظر، غالي شكري: ثورة المعتزل، ص51.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

العشرينات وفي الثلاثينات، قد وضع الرواية العربية في مفترق الطرق ليلتقطها بعده نجيب محفوظ فيما بعد.

وكانت أولى رواياته "عودة الروح" في سنة 1933، قد أُلّفها في أواخر العقد الثالث من هذا القرن، وتميّزت هذه الفترة بظهور تيار جديد في الأدب المصري حيث "كانت جدّة هذا التيار هي المصدر الذي استمد منه هذا التيار اسمه -التجديد- وكان في واقع الأمر، في تلك السنوات، تياراً واقعياً يعكس تطور الوعي الوطني في البلاد".⁽¹⁾ وهذه الرواية كتبت بتأثير ثورة 1919 وعلى ضوء التحولات التي تلتها في المجتمع والسياسة المصريين.⁽²⁾

بالإضافة الى ذلك كان متأثراً بالغرب، ففي الزمن الذي شرع فيه بكتابة "عودة الروح" 1927م، كان على إطلاع بالفن الروائي الغربي في باريس، بكون الرواية "تنبؤاً مكان الصدارة في الثقافة بين العواصم الأوروبية".⁽³⁾

كما كان المستوى الفكري والأدبي من العناصر الايجابية الناتجة عن المعركة مع أوروبا، وفي نفس الوقت كان المستوى القومي للروح المصرية هو العنصر الايجابي في المعركة مع السلطة العثمانية، والمزاوجة بين الفكر الثوري والجوهر القومي هو الذي أدى لميلاد الرواية المصرية التي تبدأ "بعودة الروح".⁽⁴⁾ وكان مضمونها وصف حياة الفلاحين ومهاجمة الظلم الاجتماعي الذي كان سائداً في مصر تلك الفترة من طرف الحكيم .

¹ - توفيق الحكيم: السلطان الحائر، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2008، ص164.

² - فخري صالح: قبل نجيب محفوظ وبعده، ص24.

³ - محمد شاهين: أفاق الرواية العربية، البنية والمؤثرات، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2007، ص70.

⁴ - ينظر، غالي شكري: ثورة المعتزل، ص112، 113.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وبذلك تكون هذه الرواية هي " ابنة الطبقة المتوسطة، ابنة الثورة المصرية وابنة محسن وسنية وزنوبة ومبروك"⁽¹⁾، تحكي قصة حب محسن لسنية، التي أشرت في حبها الإخوة أبناء الحي الواحد وسنية في هذه الرواية وكأنها تجسد "مصر" في حد ذاتها. وهو ما يبرر تمسك الحكيم بالفكرة المصرية .

كما كان الهدف الأساسي من هذه الرواية "هو القيام بعملية بعث تاريخي لمصر، تعتمد على أمجاد الماضي القديم من جهة وتتطلق من تصور مثالي للفكرة المصرية من الجهة الأخرى، ثم تزاملت الفكرتان (مصر الخالدة والبعث) في تجسيد مجموعة من الأحداث التي تشكل فيما بينها "قصة حب" من حيث الظاهر، وتحوي المضمون الثوري للبورجوازية الناشئة من حيث الجوهر".⁽²⁾

وفي هذه الرواية لا تظهر الثنائية إلا بصفة طفيفة تتجلى ملامحها بوضوح، متمثلة في (الشرق) الممثل بمصر، و(الغرب) الممثل بالاستعمار.

وشهدت سنة 1937م نشر رواية "يوميات نائب في الأرياف"، التي تعطي وصفا صادقا ودقيقا للحياة في الريف المصري، كما تصور الموظفين الصغار في الأرياف والفلاحين بكل جهلهم، وبكل آرائهم المحافظة الجامدة، كما تبين عجز هؤلاء وضعفهم وهم يساقون إلى المحاكم.

فإذا كانت "عودة الروح" تصور مصر على أنها مجرد فكرة ميتافيزيقية خالدة، فإن "يوميات نائب في الأرياف"، تصورها على أنها واقع مليء بالبؤس والعار وقابل للزوال من خريطة الحضارة.⁽³⁾

¹ - المرجع السابق ، ص137.

² - المرجع نفسه، ص131.

³ - ينظر، المرجع نفسه ، ص166.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

يقول توفيق الحكيم: "كتاب (يوميات نائب في الأرياف) يرينا الفقر والظلم في الريف

المصري، وما يلقاه أبناؤه من عنف وعسف بسبب نظم لم تراع ظروف سكان الريف".⁽¹⁾

وتدور أحداث الرواية حول حادثة -قتل غامضة -مقتل قمر الدولة علوان -التي تمضي بنا إلى

الكشف عن أوضاع الريف والمحاكم المصرية، كما تكشف عن تغليب السياسة والأعياب على

تحقيق العدل، يقول الحكيم: "كتابي هو لوحات عن فساد الإدارة وعجز نظمها عن تحقيق العدالة

بين الفلاحين، وقد أبرزت فيه معاناة سكان الريف أمام الظلم بسبب نظم لا تتفق وحياتهم".⁽²⁾

وبالإضافة إلى ذلك فهو يصور سذاجة المجتمع المصري واهتمامه بسفاسف الأمور لدرجة

أنها تصل إلى المحاكم. على العكس مع المجتمع الغربي الذي بلغ درجة عليا من العلم ولا يهتم

إلا بما يساهم في رقيه وازدهاره، وهنا تتجلى الثنائية التي طرفاها المجتمع المصري (الشرقي)

والمجتمع (الغربي)، لكنها غير واضحة ولا تجسد المعنى الحقيقي المناسب.

ولعل تجربة الحكيم الذاتية هي الدافع لكتابة هذه الرواية، يقول "في عام 1923 عيّنت

وكيلا للنيابة أمام المحاكم الأهلية، وتمكنت -خلال أربع سنوات من التجوال- من التعرف على

صميم الريف وأحسست عن كثب بمشاكل الفلاحين والكادحين، واستلهمت من حياة الريف

الكثير من المسرحيات والقصص الطويلة والقصيرة"⁽³⁾، فقد صورّ الريف المصري بعد عودته

من باريس، وهو ما ساعده على ملاحظة الفروقات بينهما.

¹ - رشيد الزواوي: أحاديث في الأدب، ص18.

² - المرجع نفسه، ص18.

³ - المرجع نفسه، ص17.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

أما في سنة 1938 ظهرت رواية "عصفور من الشرق" وكانت "يوميات نائب في الأرياف" قد ظهرت قبلها بعام واحد، إلا أنّ صدورهما في فترة واحدة يدل على مدى الانقسام الذي عاناه الحكيم في شخصيته الفنية، ذلك أنه في "عصفور من الشرق" انتصر للرومانسية انتصارا حاسما، بينما انتصر للواقعية انتصارا حاسما آخر في "يوميات نائب في الأرياف".⁽¹⁾ وقد تميزت هذه الفترة التي ظهرت فيها رواية "عصفور من الشرق" كما ظهر في كتابات العديد من المفكرين بخروج مصر من الازمة التي كانت تعانيها ومعرفتها للاتجاه الحضاري، أما أوروبا فعكس ذلك فهي لم تزل تعاني من جراحها بعد خروجها من الحرب العالمية، ما أدى بها الى الشك في مستقبل حضارتها التي كادت ان تقضي عليها هذه الحرب .

كما تعتبر رواية "عصفور من الشرق" امتدادا لرواية "عودة الروح" فالشخصية المشتركة بينهما هي شخصية "محسن" الذي لعب دور البطل المغترب الذي يسافر إلى باريس لأجل الدراسة، أما الشيء الرئيسي الآخر المشترك بينهما، هو أنها "ولدت معها" الرؤيا المصرية "التي حاولت أن تقيم التوازن بين المجد المصري القديم والحضارة الغربية الحديثة بأن تمتد جذور الإنسان المصري المعاصر إلى أرضه التاريخية ليمتص عصارته الحضارية، وليتمكن من الوقوف على قدميه وجها لوجه أمام حضارة العصر"⁽²⁾.

وربما كانت الفترة الفاصلة بين ظهور "عودة الروح" و "عصفور من الشرق" أكثر الفترات تذبذبا في فن الحكيم وسبب ذلك هو الصراع الذي نشب في أعماق الحكيم خلال

¹ - ينظر ،غالي شكري: ثورة المعتزل، ص.144
² - المرجع نفسه، ص.157.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

معايشته لفترة ما بين الحربين في فرنسا، وهذا ما وضع الحكيم بين خيارين كل منهما أشق على النفس من الآخر: الشرق المغروس في وجدانه حتى الأعماق، أو الغرب الذي احتضنه بعدما لجأ إليه وأمد عقله بأسباب الوجود؟

"وكان على رواية "عصفور من الشرق" عرض القضية لا في صورة محاسن أو مساوئ بغير حدود لكل من الحضارتين الشرقية والغربية، ولكن في صورة المحاسن والأضداد لكل منهما بروح العدل والإنصاف".⁽¹⁾

على غرار ثلاثية توفيق الحكيم "عودة الروح"، "يوميات نائب في الأرياف" و"عصفور من الشرق" ظهرت له أعمال روائية أخرى أشهرها "الرباط المقدس" 1944 التي تناول فيها تأملات في الكون والمجتمع وطبيعة العلاقات الإنسانية المعقدة والتكوين النفسي للمرأة.⁽²⁾

رغم الإنتاج الروائي الضئيل عند الحكيم إلا أنه استطاع من خلاله أن يبين موقفه ووجهته ورسالته التي يحملها، وتبقى "عصفور من الشرق" النموذج الأول والرائد في رصد العلاقة بين الشرق والغرب أو بالأحرى في تجسيد ثنائية (الشرق/الغرب) والتي أثبت فيها شوقيته وهويته، من خلالها مثل الشرق بكل روحانية، بكل براءته، بكل درجات الصدق والنبيل والسمر الروحي والدليل على ذلك عنوان الرواية "عصفور من الشرق" وكل ما يحمله من معانٍ يتألف هذا العنوان من عنصرين أساسيين أو كلمتي "عصفور" ثم "الشرق" ومعروف عن العصفور أنه يرمز إلى الجمال والغناء، و ماشابه ذلك مثل الحرية الخفة، البراءة.... إلخ

¹ - توفيق الحكيم: تحديات سنة 2000، مكتبة مصر، الفجالة، (د. ط.)، (د. ت)، ص 61.
² - ينظر، فخري صالح: قبل نجيب محفوظ وبعده، ص 38.

الفصل الأول.....الإطار العام لثنائية (الشرق/الغرب)

وباختصار إلى كل ما هو جميل، أما الشرق فهي كلمة تحدد انتماء هذا العصفور المكاني،

ومن ثم الحضاري، فهو عصفور شرقي يحمل في أجنحته، وفي صوته روح الشرق".⁽¹⁾

هذا هو عصفورنا الشرقي المهاجر، فيا ترى كيف سيكون حال فضائه الذي سيخلق فيه

(الغرب) ؟ هل سيتقبله بكل واقعه ويزوب فيه أم يجد فيه بيئة غير ملائمة لاستقراره فيعارضه،

أو يقف موقفا وسطا بين هذين الموقفين ؟

¹ - مصطفى فاسي: البطل المغترب في الرواية العربية، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في الأدب العربي، تحت إشراف عبد الله الركبي، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر (2005-2006)، ص170.

أولاً: قراءة في الرواية:

1-نبذة عن حياة توفيق الحكيم:

ولد "توفيق الحكيم" نحو سنة 1902 في الإسكندرية من أب كان وقتئذ وكيلًا للنيابة، وأم ذات شخصية قوية تميزت عن أترابها بكونها تحسن القراءة والكتابة، كان في طفولته رفيق الحالة الصحية، وكان أبوه بحكم وظيفته كثير التنقل، ما جعل الطفل ينتقل معه من هذا البلد إلى ذاك ويتردد على الكتاتيب والمدارس .

وفي سنة 1910، تولى أبوه القضاء .⁽¹⁾ فأصبح قاضياً ثم مستشاراً في المحاكم، وما من شك أنه كان يحب عمله، حتى أنه يحرص على أن يحذو ابنه حذوه ويتربص خطاه، لكن هذا الفتى سلك طريقاً آخر، إذ كان قد تعرف على الأوساط الفنية في أكثر نواحيها تواضعاً، ممثلة في ممثلي الفرق التمثيلية والمشعوذين الذين كانوا يقيمون حفلات في المراكز وكان لهذا الوسط البوهيمي، ولهذه الدنيا المصطنعة أثر كبير في حياة الفتى اليافع، وفي سنة 1924 استطاع أن يظفر بإجازة القانون في مدينة الحقوق بالقاهرة، على أنه كان في تلك الأثناء قد بدأ يكتب المسرحيات فوضع أولى مسرحياته سنة 1918م، و لم تحن 1924 حتى كانت له مسرحيات تمثل، ويساهم في إخراجها بنفسه، الأمر الذي لم يستطع أبواه منعه، إذ كانا يريان في الأوساط المسرحية آثاراً خلقية سيئة على أمثاله. في حين أن مصر كانت في آخر سنوات الحرب العالمية الأولى، وفي جو مشحون

¹ - ينظر، حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص392.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

بالإنفعالات الوطنية وبالصراع السياسي. وبغنى المسرح القومي ،كان "الحكيم" يجتاز أحسن سنين العمر من الثالثة عشر إلى الخامسة والعشرين ،ففيها تجلى حبه العميق للمسرح ،ذلك الحب الذي كان ينمو كالنبتة القومية ،والذي كان ينمو قوميا واقعيا فألهمته أولى رواياته "عودة الروح" سنة 1933.

ثم راح يواصل كتابته المسرحية ،وكانت أولى مسرحياته "الضيف الثقيل" 1918،ومن الواضح أن انجلترا هي الضيف الثقيل ،ثم تلتها مسرحية "الخطيب" 1924 ثم "المرأة الحديثة" 1926.وبعدها اتجه إلى باريس والتحق بكلية الحقوق ،وهناك اتجه إلى الأوساط الأدبية الفنية وكثيرا ما كانت تنقلته إلى مسارح "البوليفار" و"مونبارناس" و"مونمارتر" بدلا من قاعات المحاضرات في "السربون" وبعدها استدعاه والده للعودة إلى أرض مصر ،فقضى المدة بين سنتي 1928-1929 عضوا في المحكمة المختلطة بالإسكندرية ،وهو منصب مرموق ،حتى إذا كانت سنة 1929 إذا به يعين نائبا لدى المحاكم الوطنية ،وقدر له في الأعوام الأربعة التالية أن يرى مصر لأبواجحتها الجميلة ،إنما واجهة المجتمع الريفي وما يعانيه هؤلاء القوم من الشقاء وراح "الحكيم" في هذه الفترة يجمع مشاهداته عن الفلاحين وعن العمال و إهمال الموظفين الحكوميين لشؤونهم .. وكلها دونها في رواية "يوميات نائب في الأرياف" 1937 ،التي أثارت ضجة أنشئت على إثرها وزارة الشؤون الاجتماعية سنة 1939.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

والتي أصدر بعدها رواية "عصفور من الشرق" سنة 1938، تجسد فيها موقفه الواعي وتردده بين الشرق والغرب، وقد تلتها العديد من المسرحيات التي تسعى إلى الكشف عن أسباب العلة في الظروف الاجتماعية والاقتصادية، التي صورها بأسلوب واقعي تخالطه حرارة العاطفة، ولطف الفكاهة.⁽¹⁾

أما وفاته، فقد كانت بالقاهرة سنة 1987.

2-مضمون الرواية :

بين أحضان الفتاة الشقراء "أوروباً" في قلب عاصمة الحب والجنس والفن "باريس" تدور أحداث قصة أشبه بالسيرة الذاتية، يرويها لنا لسان وقلم بطلها "توفيق الحكيم". "عصفور من الشرق" قصة حب فاشلة، جمعت الطالب الشرقي "محسن" بفتاة السينما أو شباك التذاكر الفرنسية "سوزي ديبون".

بدايتها مطر، وكأن الجو شتاء، الناس يهرعون إلى مظلات المشارب والحوانيت، وإلى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل المترو، أما "محسن" فيعلن عن بداية آلامه وأحزانه، حيث يقف عند تمثال الشاعر "دي موسيه" ويجعل من الشعار الذي نقش على قاعدة هذا التمثال عنواناً لقصة "لاشيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم".⁽²⁾ وكأنه يريد أن يجعل من نفسه عظيماً كعظمة ذلك التمثال، انطلاقاً من ذلك الألم.

¹ - ينظر، توفيق الحكيم: السلطان الحائر، ص170-180.

² - توفيق الحكيم: عصفور من الشرق، دار مطبعة مصر للطباعة، مكتبة مصر الفجالة، (د.ط)، (د.ت)، ص11.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

وانطلاقة هذا الألم ،كانت ببداية قصته مع فتاة شباك التذاكر "سوزي " ،التي أحبها حبا صادقا مثاليا خياليا أذاقه المرارة والسهرة ،ودفعه للانتظار طويلا عند أبواب المسارح مراقبا إياها،يتحين فرصة لقائها وإلقاء التحية عليها وإطالة النظر إليها.

مضى الوقت ،ومحسن على حاله ،لايعرف هوية وأصل تلك الفتاة ،إلا كما رسمها له خياله ،فتاة مثالية تحمل صفات ملائكية .ولكي يلفت انتباهها ويصرح بحبه لها قرر البحث عن وسيلة تقوي روابطه بها ،ولأنها فتاة غير عادية ذات مرتبة عالية لديه ،كانت هديتها "ببغاء" داخل قفص ،أطلق عليه اسم "محسن " بعد أن رفض إهدائها الزهور والعطوركما جرت العادة ،وهو يأمل أن تكون الفتاة تتأديه حين تتأدي الببغاء "محسن" ويقول : "لي الشرف أن يكون اسمي كاسم ببغائك".⁽¹⁾

وتزداد صورة فتاته ووجهها الملائكي ارتساما في خياله ،لتقوى معها روابطه وتعزز علاقته بها ،فكان مرافقها إلى عملها ،إلى المسارح ،إلى المطاعمينفق عليها أمواله دون مبالاة ،لكن للأسف ،لم تكن لتبادل نفس الشعور .وظل "محسن" متمسكا بها رغم مآلقاه من أصدقائه من نصائح خاصة "أندرية" ،أنها فتاة ككل الفتيات ،وعاملة كآلاف العاملات لكن الحقيقة بدأت تتكشف مع مرور الزمن وبدأ الحلم يتبدد ،وبدأ حبه يدخل مرحلة سكرات الموت الأخيرة،ويعلن الإنهيار ،ومأساته بذلك تزداد بمعرفة أنها مجرد فتاة لاهية ارتضت أن تبيع جسدها ،وتجعل من نفسها مادة أمام صاحب دار السينما

¹ - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ، ص97.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

"هنري" من أجل الحصول على لقمة العيش، وهذا عندما كان اللقاء في إحدى المطاعم حين تظاهرت بتقليبها المجلة وهي تسعى لمرضاة "هنري" كي لا تفقد عملها، وفي ذلك الوقت أدرك "محسن" أن لاقيمة له لديها، وأنها ليست صورة ملائكية، بل أنثى خالدة مجبولة بطين المكر والخداع لاهية عابثة، مادية، أنانية... وتضيع "سوزي" من بين يديه، وتفر كما يفر الطائر من القفص، لأنه ليس الحبيب المناسب لفتاة باريسية تبحث عن رفيق عمر، لاعتن رفيق تسلية، إنها علاقة حب فاشلة من طرف واحد، ليخرج منها محسن إلى منعرج جديد، حين يقرر العودة إلى السماء، ويجد نفسه أمام حضارتين مختلفتين "الشرق" و "الغرب" وعالمين متناقضين "المادة" و "الروح"، وتبدأ رحلته مع "إيفان" صديقه الملحد العامل الروسي الأبيض الفار من الإشتراكية إلى بلاده باريس، ويقف موقف الهجاء اللاذع لانجازات الحضارة الأوروبية ومحاربة الرأسمالية الغربية؛ فالصناعة الحديثة تقتل الإنسان وتدمره وأوروبا لم تحسن استخدام العلم ولم تجد له مكانا في قمة عمامتها، بل كانت سنا مخرطة تقطع كأس البشرية الممتلئ بماء روحها، ومادة جسدها "فالعلم التطبيقي في الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحا وجسما".⁽¹⁾ كذلك رجال الدين المسيحي، فهم يبيعون الدين بالأموال.

وفي هذه الأثناء فهم الشرق أن فتاته لم تكن سوى غانية خليعة ليست لها قيمة لا روحية ولا أخلاقية وأن مآلها السقوط. ثم بدأت ملامح الشرق ترسخ في ذهن "إيفان"

¹ - المصدر السابق، ص 179.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

ويشتاق إلى الروحانية الشرقية، ويطلب من محسن أخذه معه إلى الشرق، بلد القرآن: "أيها الصديق!.. إلى الشرق!... فلنرحل معا إلى الشرق...." (1) للتخلص من زيف وكذب "أوروبا" والتخلي بالإيمان.

لكن حلم "إيفان" لم يتحقق، وبقيت ملامح الشرق مرسومة في ذهنه، إنه يشتاق لنور الشرق! نوره الذي يشرق من بلاد الشمس ليغرب في بلاد الغرب! إنه مشتاق لرؤية جبل الزيتون والشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم... إنه مشتاق لبلد الأنبياء.

إن الغرب لم يستطع شفاء "إيفان" لذلك وضع أمله كله في الشرق، وقد وضع له في رأسه صورة عظيمة.... تنتهي بها حياته، لتخرج آخر كلماته "أذهب أنت يا صديقي... إلى هناك... إلى النبع... وأحمل ذكراي وحدها معك... وداعا" (2). إنها وصية إيفان لمحسن.

"وتنتهي" "عصفور من الشرق" بهذا الوداع المؤثر كما لو كانت إحدى علاقات "الحب العظيم" قد تخللت إليها الدسائس والحيل ففشلت جميعها، ولم تتجح سوى "الطبيعة" أو "السماء" في تحطيم الأمل الأكبر، حطمته بالمرض والفقر والوحدة، حطمته بالعذاب الذي يظهر الإنسان من ربة المادة والواقع. (3)

¹ -توفيق الحكيم: عصفور من الشرق، ص180.

² - المصدر نفسه، ص192.

³ - غالي شكري: ثورة المعتزل، ص152.

3-ثنائية (الشرق /الغرب) من خلال البنية الفنية للرواية :

3-1-الشخصيات :

تعتبر الشخصية الروائية من أهم المكونات الفنية في العمل الروائي .

يعرفها عبد الملك مرتاض : "الشخصية ! هذا العالم المعقد الشديد التركيب المتباين التنوع ...تتعدد الشخصية الروائية بتعدد الأهواء والمذاهب والإيديولوجيات والثقافات والحضارات والهواجس والطباع البشرية التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها من حدود".⁽¹⁾ وهي ليست كالعلة المفرغة، بل هي "مدار المعاني الإنسانية ،ومحور الأفكار والآراء العامة".⁽²⁾

تظهر شخصيات رواية "عصفور من الشرق الرئيسية في ثلاثية : "محسن و"سوزي" و"إيفان" وهي لا تبدو واضحة إلا من خلال قسّماتها الخارجية فقط" إنها شخصيات تتحرك على المسرح ولا يعرف عنها القارئ إلا وصف مظهرها الخارجي ،ثم الحوادث التي تدور بين شخصياتها ، وهي حوادث مطبوعة برؤية محسن لعلاقة التناقض القائمة بين روحانية الشرق الملوثة المقتولة ومادية الغرب الزاحفة".⁽³⁾

حيث تتمثل مثالية الشرق من خلال شخصية "محسن" ومادية الغرب من خلال شخصية "سوزي" أما "إيفان" فهو الرجل الروسي الذي تسوّرت وراءه أفكار "توفيق الحكيم" في هجائه اللاذع للغرب.

¹ - عبد الملك مرتاض :في نظرية الرواية ،بحث في تقنيات السرد،عالم المعرفة ،الكويت،(د.ط)،1998،ص73.
² - محمد غنيمي هلال :النقد الأدبي الحديث ،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة (د.ط)،1997،ص526.
³ - فخري صالح :قبل نجيب محفوظ وبعده ،دراسات في الرواية العربية ،ص31.

3-1-1- شخصية محسن:

لعل هذه التسمية التي أطلقها الحكيم على نفسه "محسن" تحمل كل ما يثبت شرفيته من إخلاص وعبادة، فقد أطل في هذه الرواية بشخصية معقدة، إنه فتى غريب الأطوار له تصرفات عجيبة. ففي الوقت الذي لجأ فيه الناس إلى مظلات المشارب والحوانيت ومداخل المترو، في ذلك الجو الممطر جعل الفتى يسير الهويينا، غير حافل بشيء، وكأنه ليس إنسانا عاديا، وصفاته الشكلية تدل على ذلك "عيناه الواسعتان تتأملان نافورة الميدان، وهي زاخرة بالماء، وفمه ذو الشفاه العريضة يلوك شيئا كالبلح".⁽¹⁾

ويبدو "محسن" فتى نحيل الجسم، أسود الثياب على رأسه قبعة سوداء عريضة الإطار في قمتها فجوة غائرة"⁽²⁾، حيث يقف عند تمثال "دي موسيه"، وهو يقرأ العبارة التي نقشت على قاعدته، ووقفه فنان، مستغربا الأمر "حتى هنا أيضا يعرفون هذا؟!"⁽³⁾ فهو لم يكن يتوقع وجود هذا الفن في باريس، وهو موقف يذهب فيه جورج طرابيشي للقول: "محسن" بطل "عصفور من الشرق" مفعم ثقة برجولته إلى حد الصلف والغرور".⁽⁴⁾

وكان له أن يبين ذلك من خلال تلك العبارة التي أفصح بها "محسن" و"الأداة" حتى "... تحمل ما تحمله من معاني اللا توقع والتعالي والصلف".⁽⁵⁾

¹ -توفيق الحكيم: عصفور من الشرق، ص11.

² - المصدر نفسه، ص11.

³ - المصدر نفسه، ص12.

⁴ - جورج طرابيشي: شرق وغرب، رجولة وأثوثة، ص20.

⁵ - المرجع نفسه، ص20.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

محسن شخصية فنية ،حتى من خلال ملابسه فهي توحى بالفن وتجلب الأنظار إليه ،فأندريه وقف يتأمل ملابسه وقبعته السوداء ومعطفه الأسود وحذاءه الأسود ،حين دعاه لحضور جنازة زوج بنت شارل ،أين وجهت إليه الأنظار ،وهذا ما جعله يتساءل عن السبب "لماذا يرمقونني هكذا ..؟ يحسبونك من أهل الفن ؛بهذه القبعة وهذه الملابس!...."(1)

وهو بذلك يجسد شخصية الشرقي الفنان ،الذي اكتسب ذوقا خاصا ولمسة فنية روحية داخلية ،يقول لأندريه: "يخيل إلي يا" أندريه " أن هؤلاء الأمريكان قوم خلقوا من الإسمنت المسلح :لا روح فيهم ولا ذوق و لا ماض !".(2)

فالجانب الفني أعطى "محسن" نظرة خاصة غير النظرة المادية التي تطمس الروح والذوق "محسن" الفتى الفنان المولع بالموسيقى ،يعترف للعجوز بقوله: "إنها في دمي".(3) قالها ببساطة وبلهجة تشير إلى ماضيه ؛فقد ذكر أن مهمته في ثورة 1919، كانت تأليف الأغاني الوطنية ،التي كان يغنيها زملاؤه ، وهو ما يؤكد أصالته الشرقية في حبه للموسيقى ،حتى أنه أراد أن يتشبه بالموسرين في الغرب عندما استأجر مقعدا في صفهم ،فهو شاب طموح يسعى للأفضل ،لا يميل إلى اللهو ،يتميز بأخلاق رفيعة وسامية وهو "لا يحب سوى المطالعة والتأمل والموسيقى ".(4)

1- توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص22.

2- المصدر نفسه ،ص23.

3- المصدر نفسه ،ص28.

4- المصدر نفسه ،ص39.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

يظل جالسا بلا حراك ،جامدا كالتمثال ،فهو غريب الأطوار ،يقول جان نعوم طنوس :
"ولعل غرابة الأطوار ،إن صحت هذه التهمة ناجمة عن استغراق محسن في عالم المشاعر
والأفكار ،أو قل عالم الروح في مقابل عالم المادة"⁽¹⁾.وهو ماقد يثبت روحانية الشرق
،فالجانب الروحي لمحسن جعل منه شخصية تثير الفضول والتساؤل من طرف المحيطين
به في عالم المادة .

وربما هو الذي جعله يؤثر الوحدة والعزلة ،فهو "يحيا دائما وحده في الحياة "
⁽²⁾،فالوحيدون في الحياة كالمعتزلة لا تطيب لهم السكنى إلا داخل أنفسهم ،مستغنين بذلك
عن العالم الخارجي بكل معناه المادي .

أما جورج طرابيشي فيربط بين هذه الوحدة بمفهوم الرجولة : "الرجولة في عصفور
من الشرق "منكفئة على ذاتها مكتفية بذاتها ،لا تستمد دليلها من غير ذاتها"⁽³⁾ ،وهو بذلك
يؤكد قول "ابسن" الذي يجعل الرجل القوي هو الرجل الوحيد ،فالوحدة والعزلة هما أساس
القوة.

ومن الناحية النفسية ، يبدو "محسن كالتائر في قفص الحب ،يشعر دائما بالضعف عندما
يرى محبوبته فمشاعره جعلت منه سجيناً في عالم الخيال ،يقول محسن: "إنني إنما في
قفص لا يراه كل الناس !...."⁽⁴⁾ وفي موضع آخر يقول "إنني دائما في قفص "⁽⁵⁾.

¹ جان نعوم طنوس :صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر ،دار المنهل اللبناني ،بيروت ،ط 2009، 1، ص91.

² توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص83،84.

³ جورج طرابيشي :شرق وغرب،ص21.

⁴ توفيق الحكيم :عصفور من الشرق،ص109.

⁵ المصدر نفسه،ص47.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

مؤكدًا بذلك استمرار حالة الضعف التي يعانيتها بكونه شرقي مغترب .

يتودد إلى سوزي دائماً لتغيره اهتماماً أو تلقي إليه بكلمة ، لكنها واجهته بعبارة قاسية "أما تزال واقفا هنا ؟... أي مخلوق أنت ؟!....." (1) لكن محسن رجل خيالي يحب العبارات المبهمة ، يقول جان نعوم طنوس: "قالإبهام هنا يعني أمرين : إما أن الفتاة الباريسية لمست في الشاب ميلا عاشقاشبيها بالعبادة وإما أنها وجدت فيه رجلا اخرق ليس من سكان هذا الكوكب." (2)

إن هذا الخيال هو الذي وضع الحاجز بين محسن وسوزي ، فالعالم الغربي عالم حقيقي واقعي وهو ما جعل اندريه يقول لمحسن: "إنك رجل خيالي وهذه مصيبتك" (3) ومع أن محسن عاشق لإمرأة إلا أن أخلاقه الشرقية لاتزال مغروسة بداخله وهو يتحلى بصفات رفيعة ، جعل للحب دراسة من ناحية الروحية لا من جانبه المادي كما لاحظته في الغرب ، فالعواطف "ينبغي لها أن تحفظ في الصدور كما تحفظ اللآلئ في الأصداف" (4)

كما يبدو " محسن " فتى متواضع ، فهو يحب أن يكون بسيطاً يحب السلام ويظهر في ذلك متأثراً بعمر الخيام ، "إذا أردت أن تعرف الصفاء والسلام.... فاحذب على تعساء الحياة ، أولئك الضعفاء الفقراء الذين يرتعدون في شقائهم عندئذ تظفر بالسعادة !....." (5) . وما السلام إلا أمنية الشرق التي يسعى دائماً إلى تحقيقها ، والعيش في أكنافها .

¹ - المصدر السابق ، ص 48.

² - جان نعوم طنوس : صورة الغرب في الادب العربي المعاصر ، ص 92.

³ - توفيق الحكيم : عصفور من الشرق ، ص 49.

⁴ - المصدر نفسه ، ص 57.

⁵ - المصدر نفسه ، ص 83.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

وبهذا كانت صورة "محسن"، هي صورة الشرق المثالي بروحانيته وأخلاقه؛
فمحسن يشعر دائماً أنه لا يسكن الأرض وحدها، بل حياته ممتدة أيضاً إلى السماء
كفضاء روحاني يظهر النفس من درن المادة .

3-1-2 - شخصية سوزي:

لم يطلق الحكيم تسميته أو لقب "سوزي"، إلا على فتاة تكون جديرة بهذا الاسم
،الذي يحمل كل معاني الجمال التي تكتسبها الزهور، فهي كالزهرة بحق، ظهرت بداية
فتاة جميلة ليست ككل الفتيات "تشرف على الناس بعينين من فيروز، وهم يمرون
أمامها الواحدة تلو الأخر"، في مملكتها شباك التذاكر لها ملامح الجمال الأوروبي، ذات
عينين متسعيتين في لون الفيروز تزينهما أهداب جميلة شقراء .

وهي فتاة عاملة بمسرح الأوديون، تحمل على عاتقها مسؤوليتها نفسها في كسب
قوتها "إن الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا كالشباب تسعى وراء رزقها، بمفردها!...
نعم!... هذه الأنسة إن صدق ضني، فهي عاملة شباك التذاكر بمسرح الأوديون!".⁽¹⁾
فكسب المادة هو أساس حياتها .

كما تبدو متحررة زيادة عن اللزوم، وفي نفس الوقت مطيعة لرب عملها "هنري"
تكن له المودة، وتسعى جاهدة لإرضائه حيث تقول "لا ياعزيزي "هنري" ... أنت العقل
بعينه ... أنت أعقل مما ينبغي! ..."⁽²⁾

¹- المصدر السابق، ص77.
²- المصدر نفسه، ص55.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

وكان بذلك هدفها هو الحفاظ على مصدر رزقها .

كانت لسوزي علاقة بمحسن على غرار علاقتها بهنري التي أخفتها ، فكان لمحسن إلا أن يرسم لها صورة ملكة في خياله ،أسكنها قصور " ألف ليلة وليلة " ، لكنها لم تظهر إلا "فتاة ككل الفتيات !...وعاملة كألاف العاملات "(1).بعد أن استطاعت أن تكشف له عن جوانب من جوانب الجنة المجهولة التي كان يفقدها. إن سوزي فتاة مخادعة ،يقول محسن "ويوم كنت اعتقد أنا إني إنما أحيأ في جنة الأرض الجميلة ، كنت تعرفني أني إنما أحيأ في مهزلة متبذلة سخيفة !.. "(2).

وبذلك سقط ذلك القناع المزيف الذي ترتديه وبرزت أرويتها الموشاة بالكذب وأن لها أن ترفع شعار المادة على حساب القيم الروحية والخلقية ،فهي فتاة شقراء ناكرة للجميل "ليست إلا غانية خليعة لا قلب لها و لا ضمير ، وليست لها قيمة روحية ولا خلقية ."(3) وهي بهذه الصفات شبيهة بمثيلتها" أوروبا "فتاة شقراء ،جميلة رشيقة ذكية ،تحمل نفس صفاتها الأنانية حب النفس واستعباد الغير .

جسدت "شخصية سوزي " ،الواقع المادي الغربي بكل نفعيته التي تجري في دمها ، فالغرب صورة جميلة في ظاهرها لكنها مفرغة من داخلها لا تملأ فراغها إلا المادة ولا يثبت واقعها ووجودها إلا الاستبعاد والاستغلال وبذلك تكون "سوزي " و"أوروبا" شيء واحد ،يقول جورج طرابيشي : "والواقع أن وحدة الهوية هذه التي يقيمها بطل توفيق

¹ - توفيق الحكيم : عصفور من الشرق ،ص123.

² - المصدر نفسه ،ص144.

³ - المصدر نفسه ،ص180.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

الحكيم بين سوزي ديبون ،بوصفها فتاة شقراء ،وبين أوروبا تعطي كلا من الأنوثة والرجولة معنى جديدا ، وإلى حد ما مفاجئا ، فالأنوثة مادة وواقعية ،والرجولة روح ومثالية⁽¹⁾.وهو بذلك يهجو الغرب بتأنيثه ،بعد أن أثبت رجولة "محسن" من خلال شخصيته المتفردة والقوية .

على غرار الاختلاف في الإنتماء الجغرافي لكل من بيئة "محسن" الشرقية وبيئة "سوزي" الغربية يبقى الاختلاف والصراع قائمين ، بكونهما ينتميان أيضا إلى جنسين مختلفين (رجولة) و(أنوثة) ،وفي نفس الوقت إلى عالمين مختلفين (العالم المثالي) و(العالم المادي) ،وهذه الثنائيات التي تحمل في دلالتها المتناقضات لا توحى إلا باستمرار حالة الصراع الدائم والأبدي بين (الشرق) و(الغرب).

3-1-3- شخصية ايفان :

قدم الحكيم أعنف هجاء للحضارة الأوروبية ولأنثويتها على لسان إحدى شخصياته التي أطلق عليها تسمية "ايفان" صحيح ان هذا الاسم سلافي روسي ،لكن الدلالة التي قصدها الحكيم تخرج عن ذلك المعنى لتتصب في معنى "الحياة" كماهو عند الفرنسيين فايفان عامل روسي أبيض فار من الثورة الإشتراكية ،شاحب الوجه من المرض ،حاد النظرات يجلس وحيدا ،يقول: "إني دائما وحدي في الحياة".⁽²⁾

¹ - جورج طرابيشي:شرق وغرب،ص28.
² - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص83.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

وبالإضافة إلى صفة التفرد والوحدة، يعيش "إيفان" على القراءة والتفكير يحب المطالعة، يخلص منها الفكر الماركسي وهذه الصفات تنطبق وتتشابه كثيرا مع شخصية "محسن" وأفعالها، وربما أراد الحكيم لشخصية "إيفان" أن تكون مرافقة لمحسن كأنها حياته ذاتها، من خلالها تتحدد آراؤه وأفكاره. فقد جمعت "محسن" و"إيفان" صداقة قوية في الوقت الذي فر منه "محسن" الولوج إلى عالم الواقع بعد أن سأم الحياة في كنف الخيال والظلام، يقول محسن "إن سر تعاستنا هو أننا نعيش في هذه الحجرات المغلقة... أننا نجهل الواقع وطرائقه مباشرة... لاشيء يكتسب بالخيال في هذه الحياة". (1)

لكن قرر بعدها العودة إلى الخيال "خاصة وأن إيفان وصل إلى حد التصوف في رفضه للواقع، يقول: إيفان " آه! .. "الخيال".....هو ليل الحياة الجميل"!..هو حصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل... إن عالم "الواقع" لا يكفي وحده لحياة البشر". (2)

فأراء "إيفان" كان لها لدى "محسن"، يقول جورج طرابشي "شخصية إيفان، تظل منفذ محسن إلى عالم الاحلام في اللحظة التي قرر ان يلج فيها عالم الوقائع". (3)

لكن الفرق بينهما أن محسن متدين أما إيفان، فهو رجل ملحد "أشبهه بالقديس يوحنا في رؤياه عن فرسان القدر، الملحد الغاضب مع ذلك على الغرب". (4) وهو متمرّد على نبي الغرب "كارل ماكس"، ويبدو ساخطا عليه لأنه لم يكن عادلا حتى نسي السماء وقسم

¹ - المصدر السابق، ص 100.

² - المصدر نفسه، ص 102.

³ - جورج طرابيشي: لعبة الحكم والواقع "دراسة في أدب توفيق الحكيم"، دار الطليعة، بيروت، ط 2، (دب)، ص 48.

⁴ - المرجع نفسه، ص 48.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

الأرض وحدها بين الناس ، وهذا ما ألقى بينهم قبلة المادية والبغضاء واللهفة والعجلة، وهو بذلك لا تهمه إلا جنة الأرض ،على عكس أنبياء الشرق الذين أدخلوا السماء في الحساب والتوزيع وألقوا زهرة "الصبر" فهم العباقرة في نظره لأن "الإنسان لا يحيا من أجل الخبز ،كما أنه لا يعيش من أجل الخبز وحده ..."(1).

وهو بذلك ينتصر للجانب الروحي على حساب المادة ، رغم كونه ملحدا وهذا ما يجعله يتوق لرؤية الشرق و يشتاق لروحانيته ،وهو يرى أن الإنسان الذي لا دين له لا حياة له ،يقول : "إني لا أؤمن بشيء ،وإني أرى أحيانا الموت دانيا مني ،وفي يده "خرفة" يحونني كما يحى رقم كتب بالطباشير فوق لوحة سوداء !... فأحتقر نفسي ،وأزدرى كل حياة إنسانية.. آه !"(2)

وفعلا تنتهي حياة "ايفان" وحلم الشرق لم يتحقق ، ويمحى من طرف الموت كما كان يعتقد ،لأنه افتقد إلى الرابط الروحي الذي يسعى الغرب جاهدا لمحوه ،والإشادة بانتصار المادة.

وبهذه الشخصيات الثلاثة ،تكون رواية "عصفور من الشرق" ،قد أثارَت مشكلة الصراع بين الشرق والغرب ،بين الروح والمادة ،بين محسن المثالي وسوزي الواقعية ،ليقف ايفان موقفا وسط فهو غربي يشتاق لرؤية الشرق .

¹ - المصدر السابق،ص 88.
² - المصدر نفسه،ص 169.

2-3 - المكان والزمان :

على غرار الشخصيات ،يعتبر المكان والزمان الروائيين من أهم المكونات الأساسية في العمل الروائي وبهذا يعد المكان الروائي هو "مسرح الأحداث أو الحيز الذي تتحرك فيه الشخصيات ،أوتقيم فيه فتشاً بذلك علاقة بين الشخصية والمكان ،وهي علاقة ضرورية لتمنح العمل الروائي خصوصيته وطابعه ومن ثم يكتسب المكان صفاته ومعناه ودلالته".⁽¹⁾

وقد كان الإطار المكاني العام لرواية "عصفور من الشرق" هو الغرب وتحديداً باريس، فمنذ أن وطأت قدماً "محسن" باريس راح يجول في أماكنها ومواطن الفن فيها، فكان "ميدان الكوميدي فرانسيز" أول مكان رصدته الرواية ،وقد تعددت الأمكنة والأفضية التي تجري فيها أحداث الرواية حسب دور الشخصية الرئيسية "محسن".

-فضاء الكنيسة "سان جرمان" :

وهناك دارت أحداث تشييع جنازة زوج بنت شارل ، رافق فيها "محسن" صديقه "أندريه" وشاركاً في مراسيم هذه الجنازة ،وكان لمحسن حينها إحساس خاص اتجاه ذلك المكان "هنا أيضاً عين الخشوع وعين الشعور ،الذي كان يهز نفسه كلما دخل مسجد السيدة زينب !".⁽²⁾ فقد رأى كيف "وضع التابوت في الصدر ،وأضيئت حوله الشموع ،وأخذت أصوات الرهبان تعلوا ،مرتلة الصلاة على أنغام الأرغن".⁽³⁾ وعلى عكس أندريه الذي كان لايعطي للكنيسة قداسة ،بل يعتبرها كمقهى ،كان محسن يعتبرها بيتاً من بيوت الله ،يقول

¹ -حسان رشاد الشامي: المرأة في الرواية الفلسطينية "دراسة" منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،(د.ط) ، 1998 ، ص257.

² - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص16.

³ - المصدر نفسه ،ص17،16.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

محسن : "بل هناك السماء !... وليس من السهل على النفس الصعود في كل لحظة ... إنه لمجهود....."(1).

هناك علاقة وثيقة تربط محسن بالكنيسة ، رغم أنه دخلها لأول مرة في حياته فالجانب الروحي لمحسن هو الذي جمعه بهذا المكان ، والذي شكل بدوره حيزا مهما من شخصيته الروحانية .

-فضاء المنزل "الأسرة كوريفوار" :

هو المنزل الذي احتضن محسن أول مرة ، تعرف فيه على أصدقاء جدد فكانت العائلة تتكون من العجوز والشيخ ، أندريه وجرمين ، جانو وجيزيل ، عاش هناك لفترة وشعر بدفء العائلة وحظي فيها بحب كبير ، خاصة من طرف الشيخ الذي يقول متحدثا عن محسن "أمل ألا يسأم حياة الريف ويفر إلى باريس !..."(2).

وكان هذا المنزل يذكره بعائلته في مصر وبشرفيته ، وكان لقبه الدائم في هذا المنزل هو "العصفور الشرقي" .

-فضاء مسرح الأوديون :

مكان عمل معبودته "سوزي " ، "فهي عاملة في شباك تذاكر «تياترو الأوديون» «!(3)

ويوجد هذا المسرح في شارع الأوديون ، أين توجد هناك مقهى مقابل المسرح ، يجلس فيها محسن لترقب خروج معبودته من باب ذلك المسرح الفخم ذي الأعمدة

¹ - المصدر السابق ، ص22.

² - المصدر نفسه، ص39.

³ - المصدر نفسه ، ص52.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

العظيمة، كأنما هو باب فردوس وكان ذلك الانتظار يذكره بماضيه ،حيث كان يجلس "سليم" مترقبا خروج فتاته "سنية" وهذا المكان له وقع خاص في ذات محسن ،فالمرأة التي أحب والتي تعمل فيه هي ذات الفن وعينه ،وبذلك كان لهذا المسرح دلالتان هما:الفن والحب في آن واحد .

-فضاء فندق "زهرة الآكاسيا" :

تقطن فيه "سوزي" انتقل إليه محسن ليعيش فيه ،ولتكون حياته إلى جوارها، كانت له فيه جنة دامت خمس عشرة يوما ،وفي سينما الحي كانا يتبادلان القبلات كما يفعل من بجوارهم من العمال والعاملات ،وكان لهذا المكان دور في رصد الجانب النفسي لمحسن خلال فترة مكوثه فيه .وربما يدل على جنة الغرب التي عاشها محسن .

كما كان لمحسن جولات في أماكن الفن في باريس ،حيث "تتميز عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم بحضور واضح لكل معالم باريس الثقافية"⁽¹⁾ .منها "قهوة الدوم" بحي "بونبارس" ،وهي ملتقى أهل الفن من مصورين وممثلين وشعراء ،"ومسرح شاتليه" ، أين حضر "محسن" السمفونية الخامسة لبيتهوفن ذلك الصوت الملائكي، الذي يحمل المشاعر العظيمة ،و"أوبرا باريس" ،ففيها قضى ليلة جميلة

¹ - شجاع مسلم العاني: الرواية العربية والحضارة الأوروبية، ص62.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

عجبية لاينساها ،أراد خلالها أن يتشبه بالموسرين ،وفيها وقف مدهوشا من الحضارة الأوروبية.

وكل هذه الأماكن ساهمت في تكوين شخصية "محسن " الفنية وتغطية الجانب الروحي لديه وتكثيفه، فما السماء إلا منبع الفن .وبهذا يكون (الغرب) هو المنبع الفني الذي استقى منه (الشرق) فنيته .

أما الزمان الروائي الذي احتضن هذه الأحداث "فهو يتجلى في عناصر الرواية كافة ،وتظهر آثاره واضحة على ملامح الشخصيات وطبائعها وسلوكها ،فالأحداث التي يسردها الكاتب ،والشخصيات الروائية التي يجسدها ،كلها تتحرك في زمن محدد يقاس بالساعات وبالأيام وبالسنين ."⁽¹⁾

وكانت دلائل الزمن في الرواية بداية بفصل الشتاء ،والمطر ينهمر ،والناس يهرعون إلى مظلات المشارب والحوانيتفالإفتاحية كانت بهذا الفصل وما يؤكد ذلك وجود عدة دلالات في مواطن كثيرة من الرواية ،منها ما يتعلق بتصرفات محسن ،"جلس «محسن» كعادته كل صباح إلى مائدة المطبخ ،في المنزل الذي يقطنه ،أما شرالبرد القارس في الطريق ،مستعدبا نقر المطر على زجاج النافذة ."⁽²⁾

¹ - حسان رشاد الشامي: المرأة في الرواية الفلسطينية ، ص257.

² - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ، ص25.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

وفي موضع آخر من الرواية " إن المطر ينهمر في الخارج والبرد شديد
" (1)، فالمطر والبرد يدلان على مواصفات فصل الشتاء الذي انتهى بقدم فصل آخر
، وهو فصل الربيع "وجاء الليل واشتد الظلام في سماء شبه صافية ،تؤذن بانتهاء
الشتاء " (2).

وهو ما يؤكد قول محسن :".وإن كنت أرى أن الشتاء ،قد انقضى ،فقد
ظهرت عندك بشائر الربيع !...." (3).

وربما دل فصل الشتاء على بداية آلام وهموم "محسن " ،حين وقف تحت المطر
متأملاً التمثال والنافورة بالبداية قاسية مؤلمة لمحسن ،ولعل دلالة قسوة الشتاء
ترمز إلى قسوة الغربة في بلد غريب عليه وهو الغرب ،أما انتهاء الفصل وقدم
فصل الربيع يوحي بانتهاء آلامه ، وفرحه وسروره ،وبهذا يكون فصل الربيع هو
الزمن الذي تعود فيه الحياة إلى "محسن " حين قرر العودة إلى السماء والعالم
الروحي الذي يمثل (الشرق) .

أما زمن الرواية بمجمله فربما يدل عليه زمن اغتراب "محسن " ،يقول أندريه
:"لقد قال لي ذات يوم أنه سيمكث عامين أو ثلاثة " (4).

وهذا الزمن ربما يمثل فترة صراع البطل الشرقي مع الغرب وطول الفترة التي
قضاها هناك ،على أن هذه الفترة عاش فيها محسن أسبوعين من النعيم ، يقول

¹ - المصدر السابق، ص32.

² - المصدر نفسه، ص119.

³ - المصدر نفسه، ص148.

⁴ - المصدر نفسه، ص39.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

"إنني لست أعرف كم لبث آدم في الفردوس من زمن ،وإنني لأتوق لمعرفة ذلك ،ولكن الذي أعرفه على التحقيق "أن جنتي أنا دامت أسبوعين ،حسبتهما حسابا دقيقا ،بالساعة والدقيقة !".⁽¹⁾ والفترة الزمنية التي حددت من خلالها محسن بأسبوعين ،تثبت فترة لقاء الشرق بالغرب وهي فترة محدودة تؤكد عدم اللقاء الحقيقي بينهما ،وإذا لوحظت شخصية "محسن " وجد أنها رفضت اللقاء المباشر مع سوزي ،وهذا برفضه إقامة علاقة جنسية حقيقية معها .

وفي الأخير نخلص إلى القول بأن دلالة الزمن في الرواية توحى دائما إلى العلاقة بين الشرق والغرب والتي مثلها كل من محسن وسوزي ،والتي تخرج دائما إلى استحالة اللقاء بينهما .

والتساؤل المطروح في الأخير ،هل لهذه الروحانية التي جسدها الحكيم من خلال "محسن " وهذه المادية التي نسبها إلى "سوزي " دور في تحديد موقفه من المجتمع الغربي ككل ؟

¹ - المصدر السابق،ص148.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

ثانيا:موقف توفيق الحكيم من الغرب :

كانت "أوروبا " أو "باريس " هي الموطن الجديد الذي احتضن "محسن " ،بعد أن قرر الإغتراب لأجل الدراسة ،ومن خلال مكوثه هناك ،لايد أن تكون له رؤية خاصة اتجاه ذلك المجتمع الغريب عنه والمخالف في نفس الوقت لقوانين بيئته الشرقية ،وهذا الانتماء الشرقي أكسب "محسن " لقب "العصفور الشرقي " ،الذي تبدو معالم اغترابه واضحة في الرواية ، كأن يقول مثلا لأندريه ،أنه دائما في قفص، وإهدائه الببغاء "طائر " لسوزي له دلالة أيضا ،حتى أنه كان يعاني دائما ويقول بأنه سجين الحب ، وكل هذه المعاني تتظافر في معظمها لتثبت الإنتماء الشرقي لمحسن.

ومن الواضح أن الحضارة الغربية ظاهريا تحتل مكانة مرموقة وسط نظيراتها في العالم ،فيا ترى كيف ستكون وقفة محسن "توفيق الحكيم " اتجاهها ؟ هل ستكون وقفة انبهار وإعجاب وذوبان أم وقفة رفض ونفور ؟ أو وقفة تتوسط الوقيتين السابقتين ؟.

1-موقفه من الحضارة الغربية :

إن صورة الغرب الأولى التي رسمت في ذهن "محسن " كانت صورة حضارية راقية ،وقف خلالها وقفة انبهار وإعجاب من هذه الحضارة التي بسطت جناحيها على العالم ،فقد رأى مالم يره من قبل ،وسمع مالم يسمع ،وذلك حين

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

حضر حفلة موسيقية في باريس "فما تمالك أن وقف مشدودها ،أية عظمة وأي ثراء يشعران بالدوار؟(1).

وخلالها تفاجأ بكل أنواع البذخ والإغراق في الترف إلى حد الكفر والفجور والاستهتار وقد شبهها بالجمهورية التي تخيلها الشعراء والفلاسفة في كل زمان ،إنها "جمهورية لا تعرف الفقر ولا تعرف الغنى لأنها لا تعرف الذهب ،وتعرف السلام لأنها لا تعرف الجشع ... الكل فيها مثل فرد واحد ...أما الذهب فإنهم يصنعون منه مصابيح الطرقات وحوافر الجياد...ياالسماء! ... أو مستطاع لمثل هذا الحلم الجميل أن يتحقق يوما ،على هذه الأرض؟!(2).

حتى الفن كان من بين ما أثار إعجاب محسن في الغرب يقول عن بيتهوفن:
"هاهو ذا نبي حقيقي!...هاهو ذا رسول المحبة والسلام خليق أن يرفع مجد الغرب أبد الأبدين...وأن يطهر الإنسانية وأن ينير القلوب".(3)

هذه هي الصورة الايجابية التي أعطاها الحكيم للغرب عن طريق "محسن" أما هجاؤه اللاذع لهذه الحضارة وانجازاتها ،فقد كان على لسان "إيفان" المتصوف الذي كان له حلم رؤية الشرق ،فأوروبا في نظر "إيفان" هي ثمرة زواج آسيا وإفريقيا، فكان مولودهما "هذه الفتاة الشقراء -التي تسمى "أوروبا" ،جميلة رشيقة نكية ، لكنها

¹ - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ، ص29.

² - المصدر نفسه ،ص31.

³ - المصدر نفسه ،ص189.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

خفيفة أنانية لا يعينها إلا نفسها ،واستعباد غيرها !...".⁽¹⁾ أي أن الحضارة الأوروبية ما هي إلا الخليط الهجين الذي انجرّ عن امتزاج الحضارة الآسيوية مع الحضارة الإفريقية ،فالحضارة في نظر الحكيم لا تتدثر .

وهذه الفتاة التي يتحدث عنها إيفان هي فتاة الشرق ،ومن هذا القبيل يؤنث الغرب من طرف جورج طرابيشي : "وأن تكون أوروبا فتاة الشرق ،فهو بالتالي - حكما - فتاها ورجلها ،ولأنها أنثى ،ولأنه رجل ،فإن شاغلها الأرض والمادة ،وشاغله السماء والروح ."⁽²⁾

وهي بذلك لا تعترف إلا بحياة الواقع ،أنانية عاقبة "ترى المجد كله في شيء واحد: أن تضع الأصفاد في أرجل البشر ،وبدأت أول ما بدأت بأبويها ،إفريقيا وآسيا ...أنكرتهما ،وحبستهما".⁽³⁾ فكان لها أن لوثت الشرق بماديتها وعملت على تشويبه، يقول طرابيشي : "فكبرى جرائم «الفتاة الشقراء» في الشرق أنها ثبت فيه بعضا من مبادئ الديمقراطية وعلومها العقلانية ونقلت إليه عدوى أنوثتها وماديتها :عدوى أنوثتها المادية أو عدوى ماديتها الأنثوية".⁽⁴⁾

كما أن الحكيم يدين الرأسمالية والاشتراكية الغربية ،فالنظام الرأسمالي متعسف ،متوحش استغلالي ،الناس عنده عبيد ،كما وصفه والد أندريه ،قائلا: "يا لها من وحشية إن هذا لم يعد يسمى عملا ،إنما هو الإسترقاق ...الرق لم

¹ - المصدر السابق، ص 177.

² - جورج طرابيشي :شرق وغرب ، ص 42.

³ - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص 173.

⁴ - جورج طرابيشي :شرق وغرب ،ص 43.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

يذهب من الوجود... لقد اتخذ شكلا آخر يناسب القرن العشرين.. هاهي ذي جيوش من العبيد يسخرها أفراد معدودون من السادة الرأسماليين!..."⁽¹⁾ حتى الكنيسة التي تمثل الجانب الديني والروحي كانت خاضعة لهذا النظام "وإن نظامها الرأسمالي لأدق نظام..."⁽²⁾.

فالدين شيء مقدس ،ومتى كان الدين يباع ويشترى بالأموال ؟. وإلى جانب الدين الذي دنس بالمادة ،جعلت من العلم أيضا وهو أقدس شيء في الحضارات سنا مخرطة تقضي به على طموحات البشرية و تسلب شاعريتها وصفاء روحها ،يقول ايفان :

".... إن السكك الحديدية والطائرات قد أعطتنا السرعة وتوفير الوقت ،ولكن ما فائدة ذلك ؟...ولماذا السرعة...؟...ولماذا توفير الوقت ؟!... كأنها قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط !"⁽³⁾.

وكل شيء في هذه المدينة الغربية يعمل على قتل الفضائل الإنسانية ،وهي "مدنية ناقصة " بكونها "لا تدرك ولا تعترف إلا بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق عقلها، ولا تقوم إلا على عالم المحسوس"⁽⁴⁾. وهو عالم المادة الذي لا يعترف بعالم الروح .

¹- توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص41.

²- المصدر نفسه، ص 170.

³- المصدر نفسه،ص174.

⁴- المصدر نفسه ، ص 188.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

لكن "محسن" بعد آراء "ايفان" وقف موقفا وسطا، فرغم ما ذكره "ايفان" من هجاء للغرب، كان في نظر "محسن" قسوة زائدة، لأنه في نظره لا بد أن تكون للغرب فائدة تغطي كل هذه السلبيات، يقول "محسن": "مهما يكن من أمر، فإن أوروبا قد وصلت بالعلم البشري إلى قمم لم يصل إليها..."⁽¹⁾ ولم يكمل كلامه، وكأنه يريد به "الشرق"، الذي لم يضاهاه أوروبا في علمها ولن يضاهاها .

وبهذا وقف الحكيم بداية وقفة إعجاب وانبهار من الغرب رغم ما فيه من مساوئ تغطي عليه وعلى نظامه، ولكنه لم يتوان في تركه، فقد وجد فيه ما يتلاءم مع شخصيته من فن، على غرار ماديته التي ذاق ويلاتها في تجربته مع "سوزي"، وهو يؤثر بذلك أن يقف موقفا وسطا، فلا هو بالمؤيد ولا هو بالمعارض لهذه الحضارة. فقد "تذبذب الحكيم بين الشرق والغرب كما تذبذب بين اليمين واليسار، فلا هو غربي، ولا هو شرقي، ولا هو يساري، ولا هو يميني، فهو يحارب اليسار من خلال أفكار «ايفان»... كما يحارب الرأسمالية الغربية ويقول أن الصناعة الحديثة تقتل الإنسان... وهو بالإضافة إلى هذا أو ذاك يهاجم رجال الدين لأنهم يقتاتون بالكلمات، ويبيعون الدين بالأموال...."⁽²⁾

¹ - المصدر السابق، ص 187، 186.

² - عبد العزيز المقالح: أصوات من الزمن الجديد "دراسات في الأدب العربي المعاصر" دار العودة بيروت، ط1، 1980، ص61.

2- موقفه من الحضارة المصرية :

يمثل الحكيم في "عصفور من الشرق" الواجهة الثقافية للشرق عموماً، ولمصر بصفة خاصة، بكونها موطنه الذي ينتمي إليه، فهو ذو أصول مصرية عريقة وليدة الحضارة الفرعونية .

ولاشك أن موقفه من هذه الحضارة قد برز بصفة أو بأخرى في روايته إذ بدأ ذلك من خلال إجرائه مقارنة على لسان "محسن" بين كل من الحضارتين الأوروبية والمصرية، فالأولى في نظره صورة مشوهة ومزيفة للحياة، وهي حضارة ناقصة تعيش في عالم واحد، عالم المادة، يقول محسن "يخيل إلي أنها الحضارة الأوروبية الحديثة، لا تسمح للناس أن يعيشوا إلا في عالم واحد..."⁽¹⁾. أما الحضارة المصرية لديه، فهي في مصاف "الحضارات الكاملة" التي تعيش في عالمين، عالم المادة وعالم الروح، عالم المادة بكل ما تشمله هذه الحضارة الفرعونية من أهرامات وثروات وخيرات، أما عالم الروح فيمكن في المعابد والتماثيل وكل الطقوس والمقدسات التي تربطهم وجميع أنواع الفنون التي لها منافع للبشرية وليس لها غرض افساد الحياة، فهي بحق تستحق أن تكون حضارة خالدة، ويظهر ذلك جلياً في قول محسن: "لقد عرفت الحضارات «العلم» و«العلم التطبيقي»؛ فالحضارة التي تشيد الأهرام، لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية، ومع ذلك العلم لم يفسد من الرؤوس زجاجات الصور، التي تمثل الحياة الأخرى".⁽²⁾

¹ - توفيق الحكيم: عصفور من الشرق، ص172.

² - المصدر نفسه، ص172، 173.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

وكل العلوم النبيلة الناجمة عن الحضارات القديمة، اقتبسها الغرب وألبسها حلا تخدم مصالحه وتلبي احتياجاته الاستعمارية و"هذا العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا، سبائك ذهبية وأحجارا كريمة من الزمرد والفيروز، فاحتفظت الفتاة ببعضه، وجعلته حليا لبهرجها... أما بقية الكنوز... صنعت منها أغلالا تستعبد بها العالم!"⁽¹⁾.

فالحضارة المصرية عند الحكيم لها مكانة مرموقة وسط الحضارات، فهي المنبع العلمي الخالص الذي سقت به نظيراتها من الحضارات، وهي الكيان الروحي الذي توارثته الأجيال.

أما موقفه من الشرق ككل، فقد تناقض بين رأي "محسن" ورأي "إيفان"، فالحكيم غالى في نقد الغرب على لسان الغرب نفسه "إيفان"، وفي نفس الوقت أعطى صورة معاكسة للشرق، بالمغالات في مدحه على لسان "إيفان" نفسه، فهو في نظره بلد العلم الصرف، البعيد عن أطماع أصحاب المال والمنافع، وقد عرفه "كمظهر من مظاهر العبقريّة الأدمية المفكرة، في تعطشها لمعرفة الحقيقة العليا...! وهنا كل نبيل العلم، وسمو غايته"⁽²⁾.

كما يرى فيه بلد الأنبياء والصفاء والدين، على عكس الغرب الذي قتلته المادة وجعلته ممزق الجسد. وبعد رأي "إيفان" اتجاه الشرق عاد الحكيم ثانية وكأنه يريد

¹- المصدر السابق، ص179، 180.

²- المصدر نفسه، ص179.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

إعادة التوازن بين الشرق والغرب بنقد لاذع للشرق ،وهذه المرة على لسان "محسن" الشرقي ،في قوله لايفان : "مهلا ،مهلا أيها الصديق !... إن ذلك المنبع الذي تريد أن تراه وتلك الأنهار التي تريد أن تشرب منها ،قد تسمت كلها!... إن "الفتاة الشقراء" يوم حققت فخذها "بالمورفين السام" لم تترك أوبوها سالمين ؛لقد قضى الأمر، ولم يعد هنالك منبع صاف ،فإن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق!... " (1)

وهذه الحقنة التي أخذها الشرق جعلت منه مزيجا مع الغرب ،فقد تبنى جل الأفكار الأوروبية وانعكست مفاهيمه اتجاه الدين "... وإنه لمن السهل أن تقنع شرقيا اليوم بأن دينه فاسد ،ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن «الصناعة الكبرى» هي عجلة إبليس التي يقود بها الإنسانية إلى الدمار" (2) ،فسلاح الغرب في التأثير على الشرق هو المادة

وقد عمل الغرب على تشويه الشرق ،فاليوم ليس هناك شرق"...إنما هي غابة على أشجارها قردة ،تلبس زي الغرب ،على غير نظام ولا ترتيب ولافهم ولا إدراك". (3) وهذا المزيج الجديد الذي لاهو شرقي ولاهو بغربي خالص ،أطلق عليه طرابيشي لقب "متغشرب" أو "متغشرق" بكل ماتحمله هذه التسمية من إحياءات كاريكاتورية .

ومن هذا اللقب الهجين بين الشرق والغرب تتبين وقفة الحكيم الوسطية بينهما، فبقدر ما للغرب من مساوئ للشرق أيضا نقائص .

1- المصدر السابق ،ص 190.
2- المصدر نفسه ،ص 190.
3- المصدر نفسه ،ص 191.

3-موقفه من الدين :

لاشك أن هذا الفتى "محسن " القادم من الشرق ،والذي يتوق إلى أن يصبح عظيما، يحمل في أعماقه روحا عظيمة فريدة تسعى للأفضل "إنه شاب شاعر فنان وإن لم يكتب الشعر أو يمارس الفن ،فلاعجب إذا أثر العزلة التي يتعشقها الشعراء والقديسون وذوو النفوس الحساسة ".⁽¹⁾

ففي وسط شوارع باريس ،يقف "محسن " وصديقه "أندريه " يتحدثان ،وفجأة يتذكر "محسن" ميدان المسجد بحي السيدة زينب : "إنني أتخيل نفسي الذي في ميدان مسجد السيدة زينب !...وأتخيل هذه النافورة... وذلك «السبيل» بنوافذه ذات القضبان النحاسية .."⁽²⁾

وحديثه عن المسجد يوحي برسوخ هذا المكان في ذهنه ،ووجود روابط وثيقة تجمع به . كما يظهر تأثره بالدين ، حين دعاه "أندريه" لحضور جنازة زوج بنت شارل في "كنيسة سان جرمان" فهو لم يدخل كنيسة قط قبل هذه المرة ولم يحضر في صلاة ميت من أموات النصارى ، لكن شعورا غريبا خالجه غير خاف عنه أحس به من قبل ،فحين دخلها وجد " أيضا عين السكون ،وعين الظلام في الأركان ،وعين النور الضئيل الهائم كالأرواح في جو المكان ! إن بيت الله هو بيت الله في كل مكان وكل زمان !....."⁽³⁾

¹ - جان نعوم طنوس :صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر ، ص106.

² - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص13.

³ - المصدر نفسه ،ص16.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

لم يتخذ محسن موقفا معاديا للكنيسة ، رغم كونه شابا مسلما ، بل على العكس ، فقد اعتبرها بمقام المسجد ، فهي أيضا بيت من بيوت الله ، فيه السكون وفيه العبادة .
كما ظهر احترامه لهذا الدين واضحا من خلال إقامة مراسم الدفن التي كان يجهلها بكونه غريبا عن أولئك الناس "إنه يحمل في يده شيئا مقدسا ... كيف يتصرف إذن من تلقاء نفسه ، في شيء مملوك لله داخل بيت الله؟! إنها مسؤولية عظي " . (1)

في حين يقف صديقه "أندريه "موقفا معاكسا له ، فهو يعتبر الكنيسة كدخول مقهى ، حيث يقول : "إننا ندخلها كما ندخل القهوة .. أي فرق؟؟.. هناك محل عام وهنا محل عام .. هناك الأرغن ، وهنا الأوركستر!.." (2)

وهذه البساطة والسهولة التي يمتلكها "أندريه "، جعلت "محسن " يقول : "بل هناك السماء ! وليس من السهل على النفس الصعود في كل لحظة .. إنه لمجهود!....." (3) فمحسن يحمل بداخله شيئا ساميا مثاليا روحيا أما "أندريه" ، فهو يفتقد لهذا الجوهر ، إنه جسم بلا روح ، أو كما يقول عنه "طنوس" أنه "ريبب الحداثة الغربية." وهو بذلك يمثل نظرة الغرب المادية .

لقد أثر "محسن " أن يعيش وحيدا في الحياة ، كحياة المعتزلة تماما ، لاتطيب لهم السكنى إلا داخل أنفسهم "إنه يعلم أن المعتزلة اليوم قليل ؛ ولكم يشعر بحب

¹ - توفيق الحكيم : عصفور من الشرق، ص17 ، 18.

² - المصدر نفسه ، ص22.

³ - المصدر نفسه ، ص22.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

وتقدير لأولئك الذين لا تطيب لهم السكنى إلا داخل أنفسهم؛ ذلك أن قليلا من الناس من يملك نفسا رحبة غنية يستطيع أن يعيش فيها، وأن يستغني بها عن العالم الخارجي... " (1).

وذهب جان نعوم طنوس لتفسير هذا التفرد والانطواء، بقوله: "إن الانطواء ليس افتقارا للأننا بقدر ما هو مضاعفة ثرائها وتذوق سعادتها " (2).

والتفرد جعل من المعتزلة أناسا غير عاديين لهم صفات تميزهم عن غيرهم "إنه يعتقد دائما أن الزاهدين الحقيقيين ليسوا إلا أناسا لهم نفوس كالفراديس، تشقها الأنهار وتثيرها الشمس وتتلاأ فيها الكنوز، فهي عالم من الفتنة والسحر لانهاية لبدائعه وأسراره " (3).

لذلك نجد أن "محسن يشعر دائما أنه لايسكن الأرض وحدها، بل حياته ممتدة إلى السماء، فله أصدقاء وأحباء وحماة القديسين أهل السماء " (4) حيث يذكر دائما "السيدة زينب " وفضلها عليه في الملمات، إنه لن ينساها فلها وجود حقيقي في حياته، فكل نجاح ظفر به كان بفضلها، وكل عطف حظي به هو من عينيها، فهي كالأم الرؤوم الحريصة على أولادها ترعاهم وتنصحهم .

1- المصدر السابق، ص84.

2- جان نعوم طنوس: صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر، ص107.

3- توفيق الحكيم: عصفور من الشرق، ص84.

4- المصدر نفسه، ص104.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

كما كانت السيدة زينب "رفيقة محسن" أيام الدراسة وكانت هي التي تصبره وتشد من عزيمته وتمده بالقوة "آه... ما أقوى الإنسان الذي يعتقد أن له صديقا ونصيرا من أهل السماء !".⁽¹⁾ فالدين، إذن هو مصدر القوة في نظر "محسن".

وعن هذه القوة والإرادة يتحدث "ايفان" عن الشهداء المسيحيين "إنهم كانوا يتقدمون للذبح، ويلقى بهم إلى أنياب السباع وهم يبسمون، راضيين مقتنعين أن أبواب الجنة مفتوحة لاستقبالهم".⁽²⁾ وهو نفس ماحدث عند المسلمين في موقعة بدر التي نشبت بين المسلمين وقريش. ثم يقول ايفان: "يخيل إلي أن مثل هذا الإيمان لايمكن أن يعرفه الغرب اليوم!"⁽³⁾ لأن رجال الدين في الكنيسة هم سبب انهيار مملكة السماء وهم الذين شككوا الناس في حقيقتها بانغماسهم في الحياة الدنيا ونسيانهم الحياة الأخرى، فهم يرتابون في جنة السماء ومتكالبون على جنة الأرض، إنهم ماديون والمادة هي الشعار الذي يسعون إليه.

كما نجده معجبا أيضا بتواضع -النبي صلى الله عليه وسلم- في قوله: "إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة!...."⁽⁴⁾. فايفان رغم كونه ملحدا، إلا أنه يحترم ويقدر الدين الإسلامي والمسيحي ويدين في نفس الوقت ويقف هاجيا المادية الغربية وهيمنة الكنيسة التي تسعى وراء الثروة والمال.

¹- المصدر السابق، ص105.

²- المصدر نفسه، ص169، 170.

³- المصدر نفسه، ص170.

⁴-المصدر نفسه، ص171.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

من خلال آراء "محسن" و"إيفان" حول الدين ،يتبين لنا موقف الحكيم من الدين لكن ككل ،فهو يرى فيه شيئا روحيا مقدسا، يظهر جوهر الإنسان ويقويه ويجعل منه كائنا متفردا ،وكانت وقفته بحق وقفة احترام لكل من الدين الإسلامي والمسيحي على حد سواء ،فكلاهما رمز للمحبة والمثل العليا إلا أنه قد وجهت إليه بعض الانتقادات خلال مقارنته بين الإسلام والمسيحية ،وفي نفس الوقت مقارنتهما بالماركسية والفاشية ،والتي يعتبرها "محمد مصطفى هداة" مقارنة خاطئة ،في قوله : "وقد ربط بين الإسلام والفاشية في جانبين سماهما :الإيمان والنظام ربطا متعسفا ،لا يلبث هو نفسه أن يفرق بينهما ."(1)

فالحكيم وضع طابع الإيمان والنظام هو الوجه المشترك بين الإسلام والفاشية، يقول : "إن روح المسيحية ،كما نبعت في الشرق ،هي المحبة ،والمثل الأعلى ،وروح «الإسلام» :الإيمان والنظام ،ومسيحية اليوم الجديدة في الغرب ،هي «الماركسية».....أما إسلام العصر الحديث في الغرب :فهي الفاشية ،وهي كذلك لها طابع الإيمان والنظام !"(2)

فإيمان الفاشية يختلف عن إيمان الإسلام ،فهو إيمان ليس باللهبل زعامة البشر ،ونظام الفاشية أيضا يختلف عن نظام الإسلام ،فقد كانت أهدافه استعمارية، وهو نظام فرضه الإرهاب للسيطرة على الشعوب الضعيفة .

1- محمد مصطفى هداة :دراسات في الأدب العربي الحديث ، ص304.

2- توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص88.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

على الرغم من هذه الانتقادات، إلا أن نظرة الحكيم تبقى واحدة اتجاه الدين وهي نظرة فنان، تجعل من الدين رابطاً روحياً لا يستغنى عنه، يطهر النفس ويفشي الطمأنينة.

4- موقفه من المرأة :

محسن واحد من هؤلاء الأبطال الشرقيين الذين سافروا إلى الغرب من أجل الدراسة وإثبات الذات والبحث عن الهوية من خلال الآخر (الغرب)، لكن إثبات الذات أبقى إلا أن تكون المرأة طرفاً في هذه القضية، فكانت "سوزي دييون" هي المرأة التي وقع عليها نظر محسن، فما هو موقفه منها ياترى؟ هل ستكون مصدر إلهام وفن، أم مصدر لذة ومتعة؟ .

كانت لمحسن شخصية مثقف متعلم يحب الفن والموسيقى، ويكاد حبه للمرأة يعادلها، عاش تجربة حب دامت خمسة عشر يوماً، دخل فيها الفردوس وطرد منها، كطرد الملحد من حظيرة الإيمان .

-سوزي المرأة المثالية الخيالية :

يقول جورج طرابيشي: "محسن الفتى الشرقي، الذي أرسله والده باريس ليدرس القانون، فكرس أيامه لعبادة أبولون، عاشق . وتلك التي يحب ملكة، ولكنها ملكة فريدة في نوعها، فعرشها شباك تذاكر، ورعاياها جمهور رواد مسرح الأوديون

" (1) .

¹-جورج طرابيشي، عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط1987، ص2، ص89.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

فقد أحب "محسن"، "سوزي" حبا عظيما جعله سجين عالم الخيال، رغم أنه لم يكن يعرفها إلا صورة وشكلا، أعطاه مرتبة عظيمة مثالية في الأخلاق، فاحتلت خياله وفكره، رسم لها بذلك صورة ملكة تربعت على عرش قلبه، ملكة في قصر من قصور "ألف ليلة وليلة"، والناس حاشيتها، وهي فتاة غير عادية من طراز خاص، يقول في وصفه لها "أراها في شباكها تشرف على الناس بعينين من فيروز، وهم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر".⁽¹⁾

وهذه القيمة التي أعطاه محسن لسوزي، لا تدل إلا على صدق وإعجاب وإخلاص لها، فهو شرقي وفي لا يعرف الخداع، فضل العيش في عالم الخيال لا لشيء إلا لتعظيم مكانتها "فالمرأة العليا من سابق الخيال، أما على أرض الواقع والحقيقة فلن يكون مصيرها إلا التناثر حطاما وشظايا جديرة بالرثاء".⁽²⁾

وهو بذلك لا يحبذ علاقات الفتیان بالفتيات في الشوارع والطرق، فالمشاعر والعواطف يجب أن تحفظ في الصدور ولا تنتشوه بالواقع.

ارتقت مرتبة سوزي عند محسن لتعادل محبته للفن، إنها الفن، فهي والفن شيء واحد، حتى أنه إذا أراد تقديم هدية لها جعل منها متفردة لا تليق بها الزهور

¹ - توفيق الحكيم: عصفور من الشرق، ص51.
² - جورج طرابيشي: شرق وغرب، رجولة وأنوثة، ص23.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

والعطور، بل هي أرفع مستوى من ذلك يقول: "لازهر ولاعطر ..إنها أعظم قدرا

عندي ،وأجل خطرا من أن أقدم لها شيئا أو أن أوجه لها كلاما ".⁽¹⁾

فهو لم يكن يتعامل مع سوزي ،بل مع خيال سوزي ،حتى أنه رفض الواقع

وأراد أن يعيش في عالمه الخاص الخيالي ،عالم الحب المثالي ".....«الخيال»

وهو تاج السيادة والسمو" ⁽²⁾.

بحث عن هدية يقدمها قربانا لمعبودته ،ونظرا لمكانتها غير العادية لم يشأ

إلا أن تكون لها هدية تليق بمكانتها ،فكانت "ببغاء " في قفص ،يجعله محله

،ويعطيه اسمه ،يقول توفيق الحكيم : "فيظل بذلك اسمي يردد صداه في باريس

....على الأقل حتى يموت الببغاء !أعرف أن هذا الطائر طويل العمر !نحن معشر

المصريين ن فكر دائما في تخليد أسمائنا "⁽³⁾. ويرتجي منها الاهتمام به على أنه هو

الطائر الجريح الذي يستحق الاهتمام "تقي أنني أشد الطيور استحقاقا لعطفك

"⁽⁴⁾،فهو مدين لها من قبل حين سددت فاتورة الفندق ،إنه يرى فيها صورة الأم

الجميلة الملكة مثال العطاء والحنان .

¹- توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص58.

²- المصدر نفسه ،ص101.

³- توفيق الحكيم :زهرة العمر ، ص132.

⁴- توفيق الحكيم :عصفور من الشرق،ص109.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

حتى موعد لقائه بها في المطعم لم يكن موعدا عاديا ،طلب حينها مساعدة من جرمين وزوجها أندريه ، يقول محسن " اصنعا مني إنسانا خليقا بلقاء امرأة جميلة"⁽¹⁾، لتزداد قيمته عندها ،ويكون جديرا بلقائها وصحبتها ،وهذا ما يدل على سمو ورفعة منزلتها .

جعل محسن من الفن وسيلة لتبليغ رسالة حبه لسوزي ،فجعل لسان الشاعر الإغريقي "أنا كريون " ينطق مكانه ،وفجأة لم يفطن إلا ووجه سوزي قد لاصق وجهه وكأنها تقبله ،وانقلب الخيال فجأة إلى حقيقة "آه لأولئك الخياليين ،عندما يعطون فجأة «الحقيقة» ... نعم ،فجأة ،أي قبل أن يترك لهم زمن ،يسبغون فيه على تلك «الحقيقة» أودية الخيال الموشاة!"⁽²⁾.

-سوزي المرأة الواقعية المادية :

وفي تلك اللحظة خرج "محسن " من فضائه الخيالي إلى العام الحقيقي ،ليصفح صفحة أدرك خلالها أن سوزي ليست إلا فتاة ككل الفتيات ،وعاملة كآلاف العاملات كما أخبره أندريه ،وانها مخلوق من لحم ودم ،ففتاته ليست خيالية ،لأن الخيال تحول إلى حقيقة منذ القبله الأولى ،و "«الحقيقة» عملة لا تجوز في مملكة «الأحلام»..."⁽³⁾.

¹- المصدر السابق ،ص110.

²- المصدر نفسه ،ص122.

³-المصدر نفسه،ص122.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

وبدأ صنم معبودته في الانهيار "فأحس الفتى إحساس من يهوي إلى الأرض
" (1) وأدرك أن تفاحة الحب جميلة في مظهرها ،لكن في داخلها الدود ، وذلك الدود
يعود بالتأكيد إلى خيانة "سوزي" فقد كانت سوزي جنة الأرض التي أعطته
مفاتيحها و أذاقته رحيقها ثم طردته وأصبح كالطائر الجريح ،حين تبدد الحلم
بمعرفته أنها جعلت من نفسها مادة لغيرها ،لصاحب عملها "هنري" ،فهي استغلالية
مخادعة لا تهتمها إلا نفسها ،بل واقعية مادية كالجسد بلا روح . وفي هذه الحالة
يعمد الحكيم إلى إقامة علاقة مماهاة بين "سوزي ديبون " و"أوروبا" ويهجو الغرب
بتأنيته كما يقول جورج طرابيشي : "فأوروبا مثلها مثل سوزي ديبون «شقراء
،جميلة ،رشيقة ،ذكية -لكنها حفيفة ،أنانية،لا تعنيها إلا نفسها واستعباد غيرها
»" (2) .

ويخرج "محسن" من جنته التي دامت أسبوعين كما خرج آدم من الجنة، وآثار
الحب وجراحه ما تزال تعيش معه ،غير نادم على تجربته ،فشبح سوزي لا يزال
يخيم في أعماقه ،يقول : "إني لست نادما على ذلك القلب الذي قدمته إليك في
احترام ،فألقيت به في المدفأة!... إنه لك على كل حال ..." (3) .

¹-توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص123.

²- جورج طرابيشي :شرق وغرب ،ص27.

³- توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ، ص145.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

فقد توصل إليها لكنها قابلته بالرفض ،يقول توفيق الحكيم :«لقد شأنت أن تسترد كل شيء حتى الأوهام والأحلام فجردتني منها بعبارة واحدة :«أتمنى أني ما عشت قط هذين الأسبوعين»»⁽¹⁾.

واكتفى محسن بأسبوعين من الوصال ،ليهجّر بعدها الأرض ويقرر العودة إلى السماء ،وهو لا يزال في الغرب ،مقررًا الاعتصام بالسحب من هذا الحب الأرضي الذي وضع أنفه في الرغام ،يقول محسن "نعم هنالك سبيل واحد :لا ينبغي أن نبني شيئًا جميلًا فوق هذه الأرض ! هذه الأرض المتغيرة المتحركة برمائها ومائها وهوائها " ⁽²⁾.

ورأى أنه لا مجال للهرب إلا إلى الدين والفن ، حيث كانت الموسيقى أحب الفنون إلى محسن وهي أكثرها تجريدًا من المادة ،يقول محسن : " أن «الإخلاص للدين والفن يستوجب «التجرد»...» ⁽³⁾

لقد خاض الحكيم تجربة مع المرأة لم تكن طويلة في الزمن لكنها أشد وقعًا عليه ،فقد أحب الجانب الخيالي المثالي لسوزي ،يقول طرابيشي :«الحكيم صديق للمرأة بقدر ما تكون جمودية مثلها مثل سوزي ديبون في الطور الذي كانت فيه

¹ - توفيق الحكيم :زهرة العمر ،ص25.
² - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص156.
³ - المصدر نفسه ،ص159.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

ملكة يطل من شباك تذاكرها السحري على أرتال عاشقيها ."⁽¹⁾ فهي كما قال الفن أو الفن بذاته.

لكنه لم يرض بالجانب المادي الواقعي لها ،يقول طرابيشي : " وعدولها بقدر ما تكون متحركة مثلها مثل سوزي ديبون في الطور الذي يتضح فيه للعصفور الشرقي أنها مخلوقة من لحم ودم ".⁽²⁾

اتخذ الحكيم موقفا وسطا ،واكتفى بتلك الجنة التي عاشها لمدة أسبوعين ،وقد ترك "سوزي" لكن نفسه لا تزال معلقة بها ،يقول محسن: " أعلم أنك الآن شيء بعيد عني بعد النجوم ... ومع ذلك ما زلت أعيش معك ! .. "⁽³⁾.

5-موقفه من الفن :

لم تكن باريس عاصمة للحب والمرأة فقط في نظر "محسن" ،بل كانت في حقيقة الأمر رمزا للفن أيضا ،فتحت المطر وقف يتأمل النافورة ،إنه لشيء يثير الفضول والتساؤل : "أدمي واحد ثبت لهذا المطر ،وجعل يسير الهوينا ،غير حافل بشيء عيناها، الواسعتان تتأملان نافورة الميدان وهي زاخرة بالماء ".⁽⁴⁾ وما أن فرغ منها حتى وقف يستوحي عروس الشعر عند تمثال "دي موسيه " ،إنه تمثال فني عظيم ، يحمل عبارة عظيمة "لاشيء يجعلنا عظاما غير ألم عظيم " .

¹ - جورج طرابيشي :عقدة أوديب في الرواية العربية ،ص95.

² -المرجع نفسه ،ص95.

³ - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ،ص146.

⁴ - المصدر نفسه،ص11.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

إنها عبارة ولاشك لفنان ،جلبت ولفتت انتباه فنان آخر وهو "محسن " ،فلا أحد يحس بعظمة ذلك الفن إلا هو ،يقول أندريه : "أراهن ، بمائة فرنك ، أن لا مخلوق يقف هكذا أمام هذا أمام هذا التمثال إلا أنت " .⁽¹⁾

ويظهر حب محسن للفن ، من خلاله حبه للموسيقى ،فقد أعجبته براعة "جدة جانو" في الغناء والعزف على البيانو ،حتى أنه لم يتمالك نفسه حين أخبرته بأنها ستعزف له أغنية ،فاهتز كرسيه ،وأنشد على الفور مطلع أغنية "سان ساينس " :
"قلبي يتفتح لصوتك :كما تتفتح الأزهار لقبلات الصباح !"⁽²⁾ .

الفن مغروس في ذات محسن حتى النخاع ،لا يستطيع الحياة بدونه ،حتى المرأة التي أحبها جعلها فنا في نظره ،وهيكل الفن هو هيكل الحب ،حتى جمالها مزجه بالفن "ما أجملها ،وما أجمل الرواية نثرا وموسيقى !....هنا في هذا الهيكل قد امتزجت صورتها في نفسي بصدى أنغام «الأنترمتزو» ورقصة «الفراندول» ؟....."⁽³⁾

وتعلق محسن بالفن جعله يمضي وقته متصفحاً وجوه حوانيت الكتب وإعلانات المسارح الغنائية على الحيطان ،وحفلات الموسيقى السانفونية .

إن الفن هو الأنيس الذي رافق محسن في حياته ،خاصة عندما قرر العودة إلى السماء ،فكان هو منقذه من الأرض وتعاستها ،كما أكسبه أصدقاء جدد في الغرب

¹ - المصدر السابق،ص12.
² - المصدر نفسه ،ص28.
³ - المصدر نفسه ،ص58.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

منهم "بيتهوفن " ،الذي يتكلم بلغة سماوية يصغي إليها آلاف البشر "إن هو إلا وحي السماء يتكلم ،بمختلف المشاعر العظيمة التي رفعت الإنسانية إلى هذه المرتبة (1)فكان مثال المشاعر العظيمة التي أعجب بها "محسن"المجردة من المادة.

ومحسن يروي تجربة "بيتهوفن" ومأساته التي كان يعيشها ،والتي دفعته بأن يضع حدا لأيامه ،بعدما فقد السمع وذاق مرارة العذاب في حياته ،لكن الفن كان سبيله الوحيد للنجاة ،يقول بيتهوفن : "مثل هذه الحوادث ،كانت تلقي بي على أعتاب اليأس ،وكادت تغريني بأن أضع حدا لأيامي !.. ولكنه الفن وحده ،هو الذي أبقى على حياتي ... " (2).

ليقف "محسن " بعدها وقفة انبهار أمام الفن الموسيقي الغربي العظيم ،واكتسب رفقاء كثيرين على غرار بيتهوفن ،فكان "هاندل" و"ميكال أنج " و"رفاييل" و"باسكال" ...أصدقاء حقيقيون مولع بهم في جنة الغرب الفنية .

وعلى غرار الموسيقى ،نجد "محسن " شاعرا فنانا ،وإن لم يكتب الشعر ،فكان للشعراء مكانة هامة لديه ،وهو مهتم بقراءة شعرهم أمثال "حافظ الشيرازي" و"عمر الخيام " و"إسحاق الموصلي " ،وخاصة الشاعر الغربي "أناكريون" ،الذي اتخذ من شعره وسيلة لتبليغ رسالة حبه لسوزي ،يقول الشاعر :

1-المصدر السابق ،ص67.

2- المصدر نفسه ،ص164.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

"إني أريد...أريد أن أحب..وقد زين لي "الحب " أن أحب"(1).

إلى جانب الشعر أحب محسن المطالعة ،فنراه مثلا يتصفح كتاب "الجمهورية " لأفلاطون .

"محسن " فنان أحب الفن بقدر ما أحب المرأة أو أكثر ،فكان الفن هو الرفيق الذي آنس وحدته بعدما آثر العزلة وقرر التفرد ،وهو الوسام الذي حمله لأنه قرر أن يكون عظيما ،فكان الفن حاضرا في كل مايحيط به ،لذا يرى فيه الروح والجوهر اللذان تقوم عليهما الحياة ،وقف منبهرا أمام الفن الغربي الذي هو فن سماوي بلاشك .

أعطى "محسن " صورة واضحة عن موقف الحكيم من الفن الغربي ،وهذه الصورة عكست لنا مدى فراسة الفن لديه والتي أكسبته بدورها لقب الفنان ،بكل ماتحمله هذه الكلمة من معاني سامية تكسوها نظرتة الشرقية الروحية المجردة من المادة .

6-موقفه من الديمقراطية :

يغدو مفهوم الديمقراطية عند الحكيم ،مفهوما فكريا لاسياسيا ،فمعظم أفكار الحكيم حولها تدور في مجال الفكر والتعليم والحرية ،وفي هذه الرواية يعالج الحكيم موضوع "ديمقراطية التعليم في الغرب".

¹ -المصدر السابق،ص121.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

قام "إيفان" بهجاء لاذع لمنجزات الحضارة الأوروبية، وكان من بينها إنجازات ديمقراطية عظيمة بما في ذلك "ديمقراطية التعليم العام"، باعتقاده أنها أباحت الثقافة لأوسع الجماهير، وهو لا يكتفي بإدانتها فقط بوصفها "فكرة خاطئة" ، وبتزديدها بكون القراءة لا تختلف عن تعاطي الأفيون، يقول: "ولما كان الأوروبيون قد اتخذوا عادة القراءة طول الوقت -وتلك رذيلة- كعادة تدخين "السجائر" فإن أوروبا اليوم تتغذى بأدب من الطبعة العاشرة".⁽¹⁾

وقدم في ذلك مثالا عنه الإنجليز وسوء التعليم العام، بسبب الإقبال على المجالات والقصص البوليسية بدلا من الأدب ذي الفائدة .

بل هي بالإضافة إلى ذلك سلاح فتاك يقضي على جوهر الطبيعة البشرية "إن فكرة التعليم العام للقراءة والكتابة كغيرها من الأفكار الأوروبية الخاطئة التي روجتها أوروبا... قد انقلبت أسلحة فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية".⁽²⁾ لأنهم جعلوا من القراءة هي الأخرى مادة مصطنعة في غاية الرداءة .

كما يتهم "إيفان" أوروبا بأنها قللت من حرية علمائها، وخنقت حرية الرأي العام، فكانت السبب في موت وإعدام علمائها، يقول: "لاتنس أن أوروبا هي

¹ - المصدر السابق، ص177.
² - المصدر نفسه، ص177.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

الوحيدة التي أعدمتم في كل يوم علماءها حرقاً واتهمتم بالسحر والجنون ،وخنقت حرية الرأي العام حتى في شؤون الأدب والفن " (1).

والملاحظ في هذه العبارة هو الإحساس بغياب المبادئ الإنسانية وعدم احترام حقوق الإنسان والكرامة الأدمية ويذهب جورج طرابيشي إلى اتخاذ موقف معاكس لموقف ايفان ويعتبر هذا الأخير قروسطي عنيد لسياسة التعمية والتجهيل والظلامية ،فديمقراطية التعليم ،بالرغم من نواقصها وشوائبها من أزهى جوانب الحضارة الغربية ومن أعظم وجوهها إشراقاً ،كما أنها تكشف عن جوانب شرسة ،مكانها بين مخلفات القرون الوسطى وقاذوراتها (2). ومن الواضح أن جورج طرابيشي يفصل بحكمه هذا بين التقدم الأوروبي الحديث و أوروبا القديمة .

وقف الحكيم مدينا نظام التعليم العام المشترك في الغرب فهو يرى في الديمقراطية حرية التعليم ،وحرية الفكر ،وحرية العقول وعدم الخضوع لأي سلطة تؤدي إلى الانقياد أو التقيد ،وهو في نفس الوقت وقف منبهاً من انجازات الحضارة الأوروبية الحديثة الناتجة عن العلم ،هذا في الغرب أما في الشرق فهو معجب بالأصالة العربية والحرية التي منحت الأعرابية التي ضرب بها المثل ،الحرية في تذوق الشعر والتغني رغم أنها جاهلة بالقراءة والكتابة ،"...إن مستوى الذوق العام وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية - لا شأن له بكتابة أو قراءة

¹ - المصدر السابق ،ص180.

² - ينظر ، جورج طرابيشي :شرق وغرب ، ص33.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

!..". وهذا ما يثبت إعجابه أيضا بديمقراطية الشرق في التعليم والتفكير والبيئة التي

أتاحت لها ذلك ،طبعاً وما هذه البيئة إلا بيئته الشرقية .

7- موقفه من الاستعمار :

لم يبد الحكيم موقفا واضحا من الاستعمار في الرواية ،على غرار بعض التلميحات التي تشير إلى الموقف العدائي بين مصر والانجليز .فكان له أن روى حادثة الجندي البريطاني في مصر التي تذكرها "محسن " على إثر ثورة 1919، فقد " رأى جنديا بريطانيا شابا يقف وحده ،وقد لمحاه الثوار ،فأحاطوا به وضربه واحد منهم بقضيب من حديد على رأسه ،فشجها ووقع صريعاالدم كان يملأ وجهه ،وقد تناثر مخه في كل مكان ..."(1).

ليكمل بعدها وصفه للحادثة ،بقوله : " إن منظر الجندي الشاب المضرج لم يترك مخيلته ،لفرنسي انه عدوهعدو وطنهانه لم يعد يذكر إلا ذلك المنظر المحزنذاك الموت الفظيع"(2).

في هذه الحادثة لم يتخذ الحكيم موقفا عدائيا من الاستعمار بمفهوم القتل وسفك الدماء ،بل استعمل سلاحا آخر وهو الفكر ومحاولة تغييره إلى الأفضل ،كالحماس الذي كان يعتريه حين يؤلف الأغاني الثورية إبان ثورة 1919،فتنعكس مقولاته

¹ - توفيق الحكيم :عصفور من الشرق ، ص20.
² - المصدر نفسه ،ص21.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

الشهيرة "من يحتل أرضك يحتل فكرك" لتشمل دلالة أخرى وهي من يقتل فكرك أقتل فكره أنت أيضا .

ويتضح له موقف آخر ، من خلال حادثة والده القاضي مع المدير الذي يأمر بإدانته وهو بريء ،حيث تظهر كراهيته للإنجليز "هو أيضا نشأ على الكراهية...كراهية الإنجليز..إنه لن ينسى قط صورة أبيه الشاحبة حين دخل البيت ذات مساء مضطربا ،متأثرا.." (1)

وفي نفس الوقت يرفض العداوة والبغضاء ،"ولتكن الأسباب ما تكونبأي حق تستطيع أم أن تنشأ ولدها على العداوة والبغضاء ؟" (2)

فقد كان للإنجليز أسلوب خاص في الإستبداد والسيطرة ،فهو السيد ولا يقر بصدقة للعربي بكونه عبد في نظره "إن قاموسه لا يحوي غير كلمتي « سيد وعبد » وهم خونة ظاهرهم غير باطنهم ،يستغلون القوانين الإنسانية والقوانين المدنية لأغراضهم الاستعمارية و"كانت عمليات ظاهرها الرحمة ،وباطنها الانتقام...فباسم الإنسانية يهاجمون أعداءهم....هذه كانت طريقة الإنجليز التي يتقنونها

" (3)

وكان والد محسن في تلك القضية هو الطرف الوسط ،الذي أمر بإدانة المدير البريء من طرف الإنجليز وهذا سبب رفضه خدمة مصالحهم ،فهم يحتلون الأرض

1- المصدر السابق،ص33.
2- المصدر نفسه ،ص33.
3- المصدر نفسه ،ص35.

الفصل الثاني.....الغرب في عيون توفيق الحكيم

،ويحتلون معها فكر الإنسان ويقيدون حريته بجعله يسير في فلك ودائرة أغراضهم الاستعمارية ورفض السيطرة من جميع نواحيها .

أما جورج طرابيشي فيتوجه بالنقد إلى الحكيم من خلال نقده هذه الرواية ويقول أن أول ما يستوقفه فيها هو الغياب الكبير للشعور بالقهر الاستعماري ،فالرواية تتحدث عن شرق وغرب ،وعن صراع أزلي بينهما ،وليس عن قهر واستغلال أو اضطهاد ،حتى أن أزلية الصراع تلغي تاريخيته وتجعل من الاستعمار مجرد حادث طارئ.⁽¹⁾

أي أن الحكيم لم يكن ليعطي نظرتة اتجاه الاستعمار بكونه في صراع مع الغرب ،بل كانت جل مفاهيمه تتركز حول الصراع الفكري والحضاري .

ومن خلال هذه المواقف كلها اتجاه المجتمع الغربي ،جسدت "عصفور من الشرق" موقف الحكيم المتردد بين الشرق والغرب ،وذذبته التي أرجحته لأن يتخذ ميلا لأحد الموقفين :الشرق الذي يسري في دمه وفي عروقه ويذكره بفطرتة وأصوله ،أم الغرب المائل في ذهنه بكل بهرجة ومادته التي تمد عقله بأسباب الوجود ،إلا أن الحكيم بحكم نظرتة العادلة أبى إلا أن يقف في الوسط ،فكانت شرقيته وروحانيته هي المؤشر الذي يحدد به مواقفه ،أي يأخذ من الغرب ما يريد دون أن يتخلى عن هويته الشرقية .

¹- ينظر ،جورج طرابيشي:شرق وغرب ، ص19.

بعد تحديد مفهوم ثنائية (الشرق /الغرب) وتقصي علاقة الصراع التي تجمع طرفيها،ومثلها في الرواية العربية الحديثة عند توفيق الحكيم بكونه السباق والرائد إليها ،وبحكم تجربته الشخصية التي جمعتها مع الغرب ،كان لنا أن نستشف أهم النتائج التي سعت هذه الدراسة للوقوف عندها ومحاولة الكشف عنها والتي تتمثل بدورها في :

الشرق والغرب كلمتان متلازمتان في الحضور ،متناقضتان في المعنى ،مختلفتان في الخصائص .

علاقة الصراع بين الشرق والغرب هي علاقة الصراع بين الأنا والآخر ،وتستمر دائما كعلاقة التابع بالمتبوع ،لتنتهي دائما بعلاقة الغالب بالمغلوب ،فهي علاقة صراع أبدية .

المثاقفة بين الشرق والغرب أخذت طابع "التجنيس " ،الأنوثة للغرب ،والرجولة للشرق الذي يلعب دور المتعطش للجنس ،على غرار الرجل الغربي الذي لا يأبه لذلك .
تبنى الحكيم مفهوم ثنائية (الشرق /الغرب) من خلال الخصائص :الشرق الروحاني والغرب المادي .

"عصفور من الشرق " تمثل موقف الحكيم من ثنائية (المادة /الروح)،(الوهم /الحقيقة) (الخيال /الواقع) وكلها ثنائيات تحمل نفس المعنى وهو تحديد موقفه من الشرق والغرب .

الصراع بين شخصيات الحكيم هو صراع الروح والمادة ،حيث ضمنها جل أفكاره من خلال مواقف نجمت عن خبرات و تجارب عايشها في الغرب ،الذي لم يشأ إلا أن يكون منصفا بينه و بين الشرق، فلا دور للمادة دون وجود الروح .

تذبذبت مواقف الحكيم اتجاه الغرب بين الرفض والقبول والمماهات ،التي تؤول في النهاية إلى موقف وسط بينه وبين الشرق .

"عصفور من الشرق " هي هجاء الغرب بتأنيثه.

وكما يقال لكل شيء إذا ما تم نقصان ،فلا يغر بطيب العيش إنسان، و ذلك هو حال
جهدنا الذي يعتبر قطرة من بحر المغامرة العلمية، فإن أصبنا فمن الله و إن أخطأنا فمن
الشیطان و الله على ما نقول شهيد.

أولا: المصادر والمراجع:

1. أ حمد أمين: الشرق والغرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ط)1995.
2. أحمد درويش: الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 2004.
3. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار النهضة مصر، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).
4. أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، "رسالة دكتوراه" دار المعارف، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).
5. جان نعوم طنوس: صورة الغرب في الأدب العربي المعاصر، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط2009، 1.
6. جورج طرابيشي: عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت لبنان، ط2، 1987.
7. لعبة الحكم والواقع "دراسة في أدب توفيق الحكيم"، دار الطليعة، بيروت، ط2، (د.ت)
8. شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط2 1997.
9. زكي نجيب محمود: الشرق الفنان، دار القلم، القاهرة، (د.ط)، (د. ت)
10. حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي "الأدب الحديث" دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986.
11. حسان رشاد الشامي: المرأة في الرواية الفلسطينية "دراسة" منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، 1998.
12. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة، (د. ط)، 1411 هـ - 1991 م
13. حسن محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الاندلس، بيروت، ط2، 1983
14. الطاهر لبيب: صورة الآخر العربي، ناظر ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
15. الطيب الصالح: موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت، ط14، 1987.

16. يمنى العيد: الرواية العربية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1 ، 2001.
17. محمد مصطفى هداة: دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العلوم العربية، بيروت لبنان، ط1، 1410 هـ -1990م.
18. محمد نور الدين آفاية: الغرب في المتخيل العربي، منشورات دار الثقافة والإعلام، الشارقة، ط1 ، 1996.
19. محمد صابر عبيد وسوسن البياتي: جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار اللادقية، ط1، 2008
20. محمد راتب الحلاق: نحن والآخر "دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر " ،من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،(د.ط).
21. محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية السورية -دراسة -منشورات اتحاد الكتاب العرب ،(د.ط)، 1999.
22. محمد شاهين: أفاق الرواية العربية، البنية والمؤثرات، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1 ، 2007
23. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة (د.ط)، 1997.
24. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).
25. منى حسين مؤنس: مصر في عيون الغرب وأدبه، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، دار المعارف، (د.ط)، (د.ت).
26. مصطفى السباعي: الإستشراق والمستشرقون "مالهم وما عليهم" دار الوراق، المكتب الإسلامي ، ط2، 1422هـ، 2001م.
27. مصطفى عبد الغني: الإتجاه القومي في الرواية، عالم المعرفة، الكويت (د. ط)، 1994
28. نازك سابا يارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، نوفل، بيروت لبنان، ط2، 1992.
29. سهيل إدريس: الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1935، ط14، 2006
30. عادل الألوسي: التراث العربي والمستشرقون "دراسة عن ظهور الكتاب العربي ونفائس الكتب العربية التي طبعت في الغرب"، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1422 هـ -2001 م.

31. عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، (د. ط)، 1998.
32. عبد العاطي شلبي: فن النثر الحديث، تحليل مقالات وقصص قصيرة، ج1، المكتب الجامعي الحديث، الأزرارطية الاسكندرية (د، ط)، 2004.
33. عبد العزيز المقالح: أصوات من الزمن الجديد "دراسات في الأدب العربي المعاصر" دار العودة بيروت، ط1، 1980.
34. فخري صالح: قبل نجيب محفوظ وبعده "دراسات في الرواية العربية" دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط، 1431هـ.
35. رفاعة رافع الطهطاوي: الأعمال الكاملة، "السياسة والوطنية والتربية"، ج1، تح: محمد عمارة، دار الشروق، مصر، (د.ط)، 2010.
36. رشيد الذوايدي: أحاديث في الأدب مع توفيق الحكيم وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، 1986.
37. شجاع مسلم العاني: الرواية العربية والحضارة الأوروبية، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، (د. ط) 1975.
38. توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر، دار مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة (د. ط)، (د. ت)
39. عصفور من الشرق، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر، الفجالة (د. ط)، (د. ت).
40. زهرة العمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، (د. ط)
41. السلطان الحائر، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2008
42. تحديات سنة 2000، مكتبة مصر، الفجالة، (د. ط)، (د. ت)
43. غالي شكري: ثورة المعتزل، دراسة في أدب توفيق الحكيم، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982.

ثانيا: المراجع المترجمة:

تح،

إدوار دسعيد: الاستشراق "المفاهيم الغربية

:محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)

ثالثا: المجلات :

1-مجلة العربي "الغرب بعيون عربية"، ج2، العدد 60، الكويت، ط1، 15 أبريل 2005.

2-مجلة الرسالة، العدد العاشر، القاهرة، 1 يونيو 1933.

3-مجلة التواصل الأدبي، العدد الأول، جامعة باجي مختار عنابة، جوان 2007.

رابعا: المعاجم:

1- ابن منظور: لسان العرب، ج6 و ج10، تح: خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث، الجزائر،

ط1، 2008.

2- ابن فارس: مقاييس اللغة، ج3 و ج4، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، الأردن، (د. ط)،

(د. ت).

خامسا: الرسائل الجامعية :

1-مصطفى فاسي: البطل المغترب في الرواية العربية أطروحة مقدمة لنيل درجة

دكتوراه دولة في الأدب العربي (2005-2006) تحت إشراف د. عبد الله الركيبى، كلية

الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها .

مقدمة.....	(أ-ب-ج)
الفصل الأول : الاطار العام لثنائية (الشرق / الغرب)	
أولا :الصدام الحضاري بين الشرق / الغرب	01.....
1- مفهوم ثنائية (الشرق/الغرب).....	01.....
1-1- مفهوم الثنائية عند اللغويين.....	02.....
2-1- مفهوم الثنائية من الناحية الجغرافية.....	03.....
3-1- مفهومها من ناحية الخصائص.....	05.....
2-مادية الغرب وروحانية الشرق.....	07.....
3-علاقة الشرق بالغرب.....	08.....
3-1-الاستشراق.....	09.....
3-2-الاستغراب.....	14.....
ثانيا :ثنائية (الشرق / الغرب) في الرواية العربية الحديثة	19.....
1-الحي اللاتيني لسهيل إدريس.....	21.....
2-موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح.....	23.....
ثالثا:ثنائية(الشرق / الغرب) في فكر توفيق الحكيم.....	25.....
1-موقفه من الحضارة الغربية.....	26.....
2-موقفه من الحضارة المصرية.....	28.....
3-موقفه من الدين.....	29.....
4-موقفه من المرأة.....	33.....
5-موقفه من الفن.....	35.....
6-موقفه من الديمقراطية.....	36.....
7-موقفه من الحرية والاستعمار.....	38.....
رابعا :ثنائية (الشرق / الغرب) في الفن الروائي عند توفيق الحكيم.....	39.....

الفهرس

الفصل الثاني: الغرب في عيون توفيق الحكيم

- أولا: قراءة في الرواية 46
- 1- نبذة عن حياة توفيق الحكيم..... 46
- 2- مضمون الرواية 48
- 3- ثنائية (الشرق / الغرب) من خلال البنية الفنية للرواية..... 52
- 3-1- الشخصيات..... 52
- 3-2- المكان والزمان..... 62
- ثانيا: موقف توفيق الحكيم من الغرب..... 68
- 1- موقفه من الحضارة الغربية..... 68
- 2- موقفه من الحضارة المصرية 73
- 3- موقفه من الدين 76
- 4- موقفه من المرأة..... 81
- 5- موقفه من الفن..... 87
- 6- موقفه من الديمقراطية..... 90
- 7- موقفه من الاستعمار..... 93
- خاتمة..... 96
- قائمة المصادر والمراجع..... 98

الفهرس

ملخص

برزت ثنائية(الشرق / الغرب) كأحدى الثنائيات التي نالت حيزا مهما في الخطاب العربي الحديث و المعاصر .وذلك بتبنيها أهم القضايا الشائكة في العصر الحديث ألاوهي مسألة الصراع الحضاري. هذه الأخيرة التي كانت وليدة العلاقة المتطورة بين الشرق و الغرب ، بعد أن اتخذت تلك العلاقة العديد من الأشكال عبر العصور.

وقد سعت الرواية العربية جاهدة لكشف ملامسات هذه القضية وتوضيح أهم معالمها من خلال المواجهة بين الذات الشرقية الباحثة عن الهوية والآخر الغربي الذي يمثل معطيات الحضارة الغربية من خلال المرأة ،التي كانت دائما محورا لهذه العلاقة التصادمية بين الشرق والغرب الممثلة بالجسد ،والتي تؤول في النهاية إلى استحالة اللقاء بين الطرفين ،كما لا تسفر إلا عن مزيد من المفارقة التي تحدث القطيعة بين الحضارتين وتوسع الهوة الاجتماعية والفكرية والثقافية بينهما،فالغرب المادي لا لقاء يجمعه بالشرق الروحاني .وهو ما ذهب إليه توفيق الحكيم من خلال روايته "عصفور من الشرق " .

Résumé

Dans le monde est apparue ce qu'on appelle bilatérale(l' est /l'ouest). Parmi les bilatérale qui ont pris une grande place le discours arabe moderne parce qu'elle a pris en concédation c'est-à-dire adopté les affaires les plus délicates dans l'ère moderne c'est le choc des civilisations qui était le resultat moderne entre l'est et l'ouest après avoir pris plusieurs façons .

Le roman arabe a cherché découvrir les conditions et de façons à expliquer les principales repères entre le soi meme est qui cherche son identite et l'autre l'Ouest qui presente toutes les données de la civilisation Ouest à travers la femme qui a été toujours la relations de ce rencontre de l'Est et l'Oust qui represente le corp qui même a la fin de l'impossibilité de ce rencontrer aussi elle mène a l'ironie qui fait la rupture entre les deux civilisation et agrave l'écart social intellectuel et culturel l'Ouest et matérialist mais l'Est est spirituel que "Toufike Elhakim" dans son roman "l'oiseau de l'Est" qui a montré idendans .